مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية. العدد (٢٥)١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م. مجلة علمية محكمة. جامعة قطر

نظرة القرآن في حكمة خلق الإنسان

:: تحليل وتعليل ::

تأليف

د. حصه أحمد عبد الله الغزال

أستاذ مشارك بقسم أصول الدين

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة قطر

نظرة القرآن في حكمة خلق الإنسان

:: تحليل وتعليل ::

توطئة :

يقول الحق سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾(١) كلما ارتقى الإنسان في سلم المعارف، واتسعت مداركه، وزادت معلوماته، وكثرت تجاربه، واطلع على أسرار الكون من حوله، وأسرار نفسه التي بين جنبيه، كلما ارتقى نصيبه من معرفة الله سبحانه وتعالى؛ فمن عرف نفسه عرف ربه.

والإنسان هو محور هذا الكون الواسع الفسيح، وهو العجيبة الكبرى في هذا الخلق؛ فهو عجيبة في تكوينه الجسماني، وفي أسرار جسده ، عجيبة في تكوينه الروحي وفي أسرار نفسه، وهو عجيبة في ظاهره وعجيبة في باطنه، وهو يمثل عناصر هذا الكون وأسراره وخفاياه:

وتحسب أنك جرم صغير * وفيك انطوى العالم الأكبر

وحيثما وقف الإنسان يتأمل في عجائب نفسه وروحه، التقى بأسرار تبعث فيه الحيرة والدهشة ؛ فكل جزئية في حياة هذا المخلوق تقف بنا أمام خوارق لا تنقضي وعجائب لا تنفد، وكل فرد من أفراد هذا الجنس عالم وحده، مرآة صافية تنعكس من خلالها قدرة الحق سبحانه وتعالى، وتتجلى فيها بدائع الحكمة الإلهية،

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٢١.

لكن الإنسان يغفل عن قيمته، وعن أسراره الكامنة في كيانه عندما يغفل قلبه عن الإيمان، وتنطفئ في نفسه جذوة اليقين.

لقد توج الله الإنسان على رأس العوالم العاقلة (الملائكة –الإنس–الجن)، وغير العاقلة (سائر الكون)، وجعله سيدًا للكائنات، وأرسل له الرسل وأنزل من أجله الكتب، وجعل له الجنة والنار والثواب والعقاب، وألقى على عاتقه أمانة التكليف، فمن قام بواجب التكليف استحق أن يكون من أهل الجنة، ومن نكص على عقبيه استحق الخذلان والعقاب عياذاً بالله.

وفكرة البحث تقوم على استكشاف الغايات والحكم التي من أجلها خلق الإنسان، وذلك من خلال القرآن الكريم، بيد أننا نحتاج في أول الأمر أن نتعرف على المقصود من الحكمة والغاية والخلق التي اتخذت مفردات في عنوان هذا البحث.

معنى الحكمة والغاية:

الحكمة في اللغة : العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود، والعمل بمقتضاها، وتأتي أيضاً بمعنى: الإتقان والإحكام.

ومن هنا سمي العالم حكيما؛ لأنه صاحب حكمة متقن للأمور . وجاءت كلمة «الحكمة» في القرآن بمعنى النبوة والسنة أو سنة رسول الله . وأقرب التعريفات اللغوية إلى معناها الاصطلاحي قولهم: إنها ما تعلقت به عاقبة حميدة وهي بخلاف السفه.

والحكيم ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم، والحكيم يجوز أن يكون بمعنى الحاكم مثل قدير بمعنى قادر وعليم بمعنى عالم.

الجوهري: الحكم الحكمةَ من العلم و الحكيم العالم وصاحب الحكمة، وقد حكم أي صار حكيماً؛ قال النمر بن تولب:

وأبغض بغيضك بغضا رويدًا * إذا أنت حاولت أن تحكما

أي إذا حاولت أن تكون حكيماً.

والحكم العلم والفقه قال الله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ (١) (٢)
والغايَةُ: المدَى، وفي المُحْكم غايَةُ الشيءِ مُنْتَهاهُ.

معنى الخلق :

قال في اللسان: خلق الله تعالى وتقدس الخالق و الخلاق، وفي التنزيل ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾(٣) ، وفيه ﴿ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤)وإنما قدم أول وهلة لأنه من أسماء الله جل وعز.

الأزهري: ومن صفات الله تعالى الخالق والخلاق ولا تجوز هذه الصفة بالألف واللام لغير الله عز وجل، وهو الذي أوجد الأشياء جميعها بعد أن لم تكن موجودة.

وأصل الخلق: التقدير؛ والخلق في كلام العرب ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾(٥)

---

(١) سورة مريم، الآية ١٢ .

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة حكم، والقاموس المحيط للفيروز آبادي باب الميم فصل الحاء، ومختار الصحاح، والمعجم الوسيط . مادة حكم .

(٣) سورة الحشر، الآية ٢٤ .

(٤) سورة يس ، الآية ٨١ .

(٥) سورة الأعراف، الآية ٥٤ . .

قال أبو بكر ابن الأنبا ري الخلق في كلام العرب على وجهين أحدهما الإنشاء على مثال أبدعه والآخر التقدير، وقال في قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾(١) معناه أحسن المقدرين. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾(٢)، أي تقدرون كذبا.(٣)

المقصود من الحكمة في خلق الإنسان:

إذا أضيفت الحكمة بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى ، تكون بمعنى الغاية، لا بمعنى الباعث أو المؤثر، فالله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء كما هو مقرر عند أهل السنة والجماعة، وأفعاله سبحانه وتعالى لا تعلل بالأغراض، ولا تخلو عن حكمة، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾(٤)؛ أي ألم تعلموا شيئا فحسبتم أنما خلقناكم بغير حكمة بالغة حتى أنكرتم البعث فإعراب "عبثا" حال من نون العظمة أي عابثين أو مفعول له أي أنما خلقناكم للعبث وأنكم إلينا لا تَرجعون عطف على أنما فإن خلقكم بغير بعث من قبيل العبث وإنما خلقناكم لنعيدكم ونجازيكم على أعمالكم وقرئ ترجعون بفتح التاء من الرجوع. (٥)

وينبغي الإشارة في هذا المقام إلى وجوب التفريق بين تعليل الأحكام وتعليل الأفعال؛ قال الزركشي في البحر المحيط:

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ١٤.
(٢) سورة العنكبوت، الآية ١٧ .
(٣) لسان العرب مادة (خلق). .
(٤) سورة المؤمنون، الآية ١١٥ .
(٥) انظر تفسير أبي السعود (١٥٣/٦) ط دار إحياء التراث العربي .

ونقل ابن الحاجب في الكلام على السبر والتقسيم (١)إجماع الفقهاء على أنه لا بد للحكم من علة واستشكل ذلك بالأصل المشهور أن أفعال الله لا تعلل بالغرض قلت ولا منافاة بينهما لأنَّ الأحكام غير الأفعال. (٢)

معنى التعليل في قوله تعالى:﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٣)

يقول الأستاذ الدكتور محمد سالم في كتابه التعليل (٤)

في قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٥)

فالعلة الغائية في الآية الكريمة العبادة، ولا يصح أن تكون باعثة للشارع على الخلق، بل المراد المنفعة والمصلحة العائدة على العبد المترتبة على تشريع الحكم، وبناء على ذلك فالآية من التعليل بالحكمة والمصلحة.

وقوله إلا ليعبدون: استثناء من النفي لا ريب في ظهوره في أنَّ للخلق حكمة هي العبادة، بمعنى كونهم عابدين، لا كونه معبودًا، فقد قال ليعبدون ولم يقل لأعبد أو لأكون معبودًا لهم فليست هذه العبادة غرضًا للشارع بل حكمة له؛ ضرورة أنّ الغرض كيفما كان أمر يستكمل به صاحبه ويقضي حاجته، والله سبحانه وتعالى لا نقص فيه ولا حاجة حتى يستكمل به وترتفع حاجته.

---

(١) وتعريف السبر والتقسيم: السبر هو أن يختبر الوصف هل يصلح للعلية أو لا، والتقسيم هو قولنا: العلة إما كذا، وإما كذا .

(٢) البحر المحيط في أصول الفقه (١١١/٤) ، ط دار الكتب العلمية ، وانظر : الموافقات للشاطبي (٣٢٢/٢).

(٣) سورة الذاريات، الآية ٥٦ .

(٤) التعليل في القرآن الكريم للأستاذ الدكتور محمد سالم أبو عاصي، ص ٢٦٥ – ٢٦٦ .

(٥) سورة الذاريات، الآية ٥٦ .

فإن قيل : حمل اللام في قوله تعالى (ليعبدون) على الغاية يعارضه قوله تعالى، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ (1)، ويعارضه كذلك المشاهد المحس.

قلت: قد أبان الاعتراض ووجه الحق في الجواب العلامة الآلوسي رحمه الله، وأل في الجنّ والإنس المشهور فيها الاستغراق، واللام للغاية التي هي العبادة، وإن لم تكن غاية مطلوبة من الخلق، لقيام الدليل على أنه عز وجل لم يخلق الجن والإنس لأجلها، أي لإرادتها منهم، إذ لو أرادها سبحانه منهم لم يتخلف ذلك منهم لاستلزام الإرادة الإلهية للمراد كما بين في الأصول، مع أنَّ التخلف محقق بالمشاهدة.

وأيضًا ظاهر قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾(2) يدل على إرادة المعاصي من الكثير يستحقوا بها جهنم، فينافي إرادة العبادة، هذا وجه الاعتراض.

أما وجه الجواب، فقال رحمه الله تعالى: لما كان خلقهم على حالة صالحة للعبادة مستعدة لها، حيث ركب سبحانه فيهم عقولا وجعل لهم حواس ظاهرة وباطنه إلى غير ذلك من وجوه الاستعداد، جعل خلقهم مغيا بها، مبالغة بتشبيه المعد للشيء بالغاية، ومثله سائغ في العرف، ألا تراهم يقولون للقوي جسمه: هو مخلوق للمصارعة، وللبقر: هي مخلوقة للحرث، وفي الكشف أنَّ أفعاله تعالى تنساق إلى الغاية الكمالية، واللام فيها موضوعها ذلك، وأما الإرادة فليست من مقتضى اللام إلا إذا علم أنَّ الباعث مطلوب في نفسه، وعلى هذا لا يحتاج إلى تأويل، فإنهم خلقوا بحيث يتأتى منهم العبادة وهدوا إليها، وجعلت تلك غاية كمالية

---

(1) سورة الأعراف، الآية ١٧٩ .

(2) سورة الأعراف، الآية ١٧٩ .

لخلقهم وتعوق بعضهم عن الوصول إليها لا يمنع كون الغاية غاية وهذا معنى مكشوف. ا.هـ (١)

خلق الإنسان في القرآن والرد على الماديين وأصحاب نظرية النشوء والارتقاء:

الماديون هم الذاهبون إلى نفي كل موجود سوى المادة التي تدرك بالحواس الخمس، ويقال لهم الطبعيون، وعلة هذه التسمية أنهم سئلوا عن منشأ الاختلاف في صور المواد وعوارضها، والتنوع الواقع في آثارها، فنسبوه إلى طبيعة هذه الأشياء، ومن زعمهم أن المادة وجدت بنفسها ويستحيل أن تكون من العدم، قالوا: لأن العقل لا يمكن أن يتصور مادة تتلاشى إلى درجة العدم، فكيف يحكم بوجودها في زمن من الأزمان في حالة لا يمكن أن تصير إليها؟ وبما أنهم قالوا بأزلية المادة فقد أنكروا الخالق وأنكروا كون الإنسان مخلوقا من العدم.

هذا وقد أبطل العلماء قدم المادة حيث قالوا: (٢) ومما أحال قدم المادة أن القديم لابد أن يكون كاملا، موجودا بذاته، لا يقبل تغيراً، هذه أخص أوصافه، وذلك لأنه لو كان غير كامل للزم أن يتكامل بغيره متصاعدا حتى يصل إلى كائن كامل في ذاته لا يفتقر إلى غيره، ولو كان غير موجود بذاته للزم أن يكون له علة أوجدته فلا يكون أزليا، ولا كان غير موجود يقبل التغير لتواردت عليه البدايات والنهايات فكان غير قديم، وهذه الأوصاف للقديم لا تنطبق على المادة بوجه؛ لأن المادة ناقصة تتكامل دائما وأبدا، متعددة ليس لها وجود من ذاتها، تتغير وضعا وفعلا واتصافا؛ إذ يتعلق الواحد فيها بالآخر مما يجره إليها كل من التدافع والتجاذب، وحينئذ فلا تكون المادة قديمة ومعنى هذا أنها حدثت من العدم.

---

(١) روح المعاني للآلوسي (١٢٧/ ٢٠-٢١)، ط: دار إحياء التراث العربي .

(٢) انظر كتاب دلائل التوحيد للقاسمي، وكتاب إلزام القرآن للماديين والملحدين للدكتور سيد أحمد رمضان المسير ص١٤، ١٥ .

هذا ما أجاب به العلماء من الناحية العقلية، فإذا ما نظرنا في آيات القرآن الكريم وجدنا أنها حددت مراحل خلق الإنسان في القرآن في ست: من تراب- من طين- من طين لازب- من حمأ مسنون- من صلصال كالفخار- نفخ الروح.

وهذه المراحل الست قد انطبقت على آدم أبي البشر عليه السلام، فآدم عليه السلام مخلوق من تراب والتراب من عدم، ثم تحول التراب بعد صب الماء عليه إلى طين فصار هذا الطين اللازب حمأ مسنوناً أي متغيراً، ثم جف هذا الحمأ المسنون فصار صلصالاً كالفخار، ثم سوى الله جل جلاله صورة آدم عليه السلام من هذا الفخار ثم نفخ فيه من روحه، فكان إنساناً أصلاً لذريته إلى أن تنتهي الدنيا.

مراحل الخلق بين العلم الحديث والقرآن الكريم:

في القرآن العظيم من الآيات المعجزات ما لم تحط به العقول، وما لم تدركه الأفهام والأبصار، لما احتوته من عجائب لا تنقضي وعلوم لا تنتهي.

غير أن وسائل العلم الحديثة على ما أوتيت من تقنية عالية ومتطورة بالغة التعقيد، استطاعت أن تظهر لنا بعضاً من الحقائق التي انطوت عليها معجزة القرآن وبقيت عاجزة مقصرة عن إدراك بعضها الآخر، وصدق الله تعالى حيث يقول:﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (١).

ومن الظواهر التي تناولها القرآن الكريم بالبحث وتوجيه البشر على مختلف أزمنتهم ، لمعرفة بعض من أسرارها الغامضة، ظاهرة خلق الإنسان، وقد تحدثت

---

(١) سورة الكهف، الآية ١٠٩. .

عنها الكتابات القديمة بما احتوته من مفاهيم خاطئة وخرافات كثيرة، أحاطت بتفسير هذه الظاهرة التي نحن بصدد تناولها.

إنه في الحقيقة ليس من السهل تناول مثل هذه الظاهرة بدقة وتفصيل، لولا علم التشريح الحديث ووسائله المتطورة ، التي بواسطتها كشف لنا بعض من الأسرار الغامضة التي أحاطت بتفسير هذه الظاهرة. أما القرآن الكريم، فقد تناولها في آيات عديدة تناثرت كاللآلئ في عدد من سطور سوره دون ترتيب، لتكون لدينا بمجموعها فكرة شاملة عن خلق الإنسان ، بدقة لم يكن للعلم إلا أن يخضع لها، منسجماً مع الحقائق التي أتت بها هذه الآيات، وبما توفرت لديه من وسائل كشف واختبار،يقول سبحاه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (١)ويقول أيضاً: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(٢).

مرحلة ما قبل ظهور الإنسان(٣) يبدأ القرآن بالحديث عما قبل ظهور الإنسان في هذا الكون مذكراً إياه بإعجاز خلقه ووجوده، وفي ذلك يقول تعالى:﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(٤)﴾غير أن إرادة الله شاءت أن توجده بعد أن لم يكن، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا(٥)﴾.

---

(١) سورة النساء، الآية ٨٧ .

(٢) سورة فصلت، الآيتان ٤١، ٤٢. .

(٣) العلم بين القرآن والتوراة والإنجيل: موريس بوكاي.، الإعجاز الطبي في القرآن: للدكتور السيد الجميلي .

(٤) سورة الإنسان، الآية ١.

(٥) سورة مريم، الآية ٦٧ .

خلق الإنسان من طين:

من التراب والماء أوجد الله الإنسان وخلقه، فمادة صنعه هذه موجودة، ولم يكن الإنسان موجوداً معها، يقول تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾(١) ، ويقول أيضاً: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾(٢)

هذا ما قاله الله تعالى، ولكن ما قول البشر ممن ظهرت على أيديهم حقائق العلم وغابت عن أذهانهم آيات الحق في القرآن؟

لقد أثبتت الدراسات الحديثة، والاختبارات التي أجريت لمعرفة مادة خلق الإنسان والعناصر الداخلة في تركيبها، أن مادته هي من جميع مكونات الأرض بما حوته من فلزات معدنية وغيرها من الغضار والسيليسيوم والكالسيوم والفوسفور والمنغنيز وملح الصوديوم والنحاس والحديد والفضة و.. وغيرها كثير.. وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ (٣)؛ فمن رحم الأرض بدأ الله خلق الإنسان وفي ذلك يقول تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٤)، ويقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (٥)، ولقد شاءت حكمة الله في خلق آدم أن تجعل خلقه على أطوار، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (٦)ويقول تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾(٧) ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (٨)

---

(١) سورة الحج، الآية ٥ .
(٢) سورة النور، الآية ٤٥.
(٣) سورة يونس، الآية ٣٢ .
(٤) سورة السجدة، الآية ٧ .
(٥) سورة نوح، الآية ١٧ .
(٦) سورة المؤمنون، الآية ١٢.
(٧) سورة الصافات، الآية ١١.
(٨) سورة الحجر، الآية ٢٦.

١- حمأ : طين أسود متغير لطول مخالطته. (١)

٢- مسنون : مصبوب أو مصور صورة إنسان أجوف، متغير الرائحة. (٢)

ويقول تعالى عن الصلصال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (٣)

وبعد خلقه من الطين صوره وأسجد له ملائكته ، وفي هذا المعنى يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ﴾ (٤)

ويقول تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٥)

وخلق الله الزوجين الذكر والأنثى من نفس واحدة وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء وفي ذلك يقول تعالى:﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾(٦).

بدء خلق الإنسان من ماء مهين

وبعد تمام خلق آدم وزوجه من طين، وبرحمة من الله تعالى لبني البشر، جعل نسل آدم من سلالة من ماء مهين، وبدأ خلقه من نطفة في رحم الأم، بعد أن خلق آدم من رحم الأرض، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾(٧) فمن مبيض المرأة تزرع البويضة في تربة الرحم، وتسقى من ماء مهين من الرجل، وفي هذا المعنى يقول تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾(٨)

---

(١) تفسير روح البيان/ للشيخ إسماعيل حقي البروسوي/٤٥٧/٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم / لأبن كثير، ٥٥٠/٢، وتفسير ابن عباس ٦٤/٣.

(٣) سورة الرحمن، الآية ١٤١ .

(٤) سورة الأعراف، الآية ١١ .

(٥) سورة الحجر، الآية ٢٩ .

(٦) سورة النساء، الآية ١.

(٧) سورة السجدة، الآيتان ٧، ٨ .

(٨) سورة المؤمنون، الآية ١٣ .

وفي وصول نطاف الرجل إلى البويضة يكون الاستقرار لهذا الخلق، وإيذان من الله تعالى ببدء خلقه. بعد أن تمكنت جذوره في الرحم، فأي إعجاز أكبر من هذا الإعجاز في ترتيب الحق للخلق؟.فما أعظم آيات الله في إخبارها عن الحق ودقة بيانها ووصفها له، ففي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾(١)، مشيئة أرادها الله للنطفة، فمن الذي أقر هذه النطفة في رحم الأم؟وبمشيئة من؟ وإلى متى؟ يجيب الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾(٢).

وهذه المشيئة تجلت بقوانين الله في تثبيت النطفة بالرحم وإقرارها فيه، فوجود هرمون البروجسترون والذي يفرزه الجسم الأبيض في الأنثى، يعمل على زرع البويضة المخصبة في تربة الرحم والحفاظ عليها، بأن يقلل من حركات جدار الرحم والتي من الممكن أن تطرد البويضة بعيدا عن الرحم، وتلفظها إلى غير رجعة. ويقوم هذا الهرمون كذلك بإيقاف الدورة الحيضية الشهرية عند المرأة، بتنبيه المخ الذي يقوم بدوره بالتحكم في المبيضين.ومن هذه النطفة يبدأ خلق الإنسان في رحم الأم؛ يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾(٣)

ويقول تعالى عن هذه النطفة: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾(٤) ويرى المفسرون بالإجماع أن كلمة أمشاج تعني:مخاليط أو أخلاط، وأن النطفة ذات عناصر شتى(٥)وتقول العلوم الحديثة عن هذه العناصر الشتى، أن السائل المخصب يتكون من إفرازات مختلفة تأتي من الغدد التالية:

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ١٣.
(٢) سورة الحج، الآية (٥).
(٣) سورة القيامة، الآيتان ٣٧، ٣٨ .
(٤) سورة الإنسان، الآية ٢.
(٥) جامع البيان في تفسير القرآن/ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري/١٢٦/٢٩.
- ومختصر تفسير الخازن/ للبغدادي/١٦٣١/٣. - وصفوة التفاسير/ للصابوني/ ٤٩١/٣.

١- الخصيتان: وتحتوي إفرازات الغدة التناسلية للذكر على الحيوانات المنوية، وهي خلايا مستطيلة مزودة بهدب طويل تسبح في سائل مصلي.

٢- الحويصلات المنوية: وتقوم على تخزين الحيوانات المنوية، ولها إفرازات لا تحتوي على عناصر مخصبة.

٣- البروستات: وتفرز سائلاً يعطي للسائل المنوي قوامه الغليظ ورائحته الخاصة.

٤- الغدد الملحقة بالمسالك البولية: وهي الغدد المعروفة باسم كوبر أوميري، وتفرز سائلاً جارياً، وغدد "ليتري" وتفرز المخاط، وهذه جميعها تشكل المخاليط (الأمشاج) والتي تحدث القرآن عنها أطوار سلالة الماء المهين وبعد أن عرفنا شيئاً عن أمشاج النطفة، فلنتأمل في قوله تعالى: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ (١) ففي هذه الآية نجد أن التقدير يأتي بعد الخلق مباشرة، وفي ذلك إعجاز قرآني كبير، إذ تبدأ الانقسامات الخلوية بالتشكل بعد اتحاد نطاف الرجل مع البويضة وتكوين ما يسمى بالبويضة المخصبة، «وينقسم كل منها اختزالياً، ليكون كل منها نصف عدد الصبغيات في الخلية الجسدية، أي إن الخلية تحوي على ٤٦ زوجاً من الصبغيات، بينما تحوي كل من الخليتين التناسليتين المتحدتين ٢٣ زوجاً من هذه الصبغيات أو الكروموسومات، ولذلك يكون تقدير الله سبحانه وتعالى لهذه اللاقحة إما ذكرا أو أنثى بتركيب صبغي محدد»وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ (٢)وهذا إعجاز قرآني كبير جداً، إذ إن الرجل هو المسئول عن عنصر الذكورة أو الأنوثة في اللاقحة ، قال تعالى: (فجعل منه) ولم يقل (فجعل منها) وسبحان الله تعالى وهو القائل في كتابه العزيز:﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (٣).

---

(١) سورة عبس، الآية ١٩.

(٢) سورة القيامة، الآية ٣٨. .

(٣) سورة آل عمران، الآية ٦.

وقد تحدث القرآن عن مراحل الخلق عند الإنسان في رحم الأم، في آيات كثيرة منها قوله تعالى﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ (١)أي إن خلق الإنسان يجري في سلسلة من تحولات الماء المهين، الذي اختلط مع البويضة المزروعة في تربة الرحم، ولعلّ تسميتة بالماء المهين – والله أعلم – تعود إما لضعف هذا الماء أي قلة كميته أو لخروجه من مخارج البول ، ولعلّه أيضاً لاختزال عدد الصبغيات في خلاياه إلى النصف عن خلايا الجسد العادية.وبشيء من التفصيل تتحدث هذه الآيات عن سلسلة الماء المهين و تحولاته، وفي ذلك يقول تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾(٢)، ويقول أيضاً : ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ (٣).

وتطور الجنين في رحم الأم – كما يصفه القرآن – يتطابق تماماً مع ما يعرف اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين، ولا يحتوي هذا الوصف على أي مقولة يمكن للعلم الحديث أن يأتي بنقيضها، وفي المضغة ما يشير إلى ما يشبه اللحم الممضوغ ويستحق هذا التمييز الالتفات، إذ إن الجنين في مرحلة أولى من مراحل تطوره كتلة صغيرة من اللحم، تبدو فعلاً للعين المجردة كلحم ممضوغ.

وفي معنى(مخلّقة وغير مخلّقة) فمن المعروف أيضاً أنه في أثناء مرحلة تطور الجنين تبدو بعض الأجزاء غير متناسبة مع ما سيكون عليه الفرد في

---

(١) سورة السجدة، الآيتان ٧، ٨ .
(٢) سورة الحج، الآية ٥.
(٣) سورة المؤمنون، الآية ١٤ .

المستقبل ، على حين تظل أجزاء أخرى متناسبة حتى نهاية مرحلة تطور الجنين. وفي قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ (١). وصف بالغ الدقة لتطور مرحلة اللحم الممضوغ إلى الهيكل العظمي، وبعد أن تتشكل العظام تتغطى بالعضلات التي توافق كلمة لحم، كما ذكر القرآن الحواس و ظهورها عند الإنسان وكيفية ترتيبها، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لعلكم تشكرون﴾ (٢)

وفي هذه الآية قدم القرآن الكريم السمع ثم أتبعه بالأبصار ثم الأفئدة، فما هو الإعجاز الطبي القرآني في ذلك الترتيب؟ إن لذلك حكمة طبية بالغة، فالجنين عند ولادته لم تكن قد تطورت لديه حاسة الإبصار، وقد يظل الطفل أسبوعين أو ثلاثة لا يرى خلالها ، وإنما يقلب عينيه دون أن يرمش أو يرعش حين يُقرب شيء من عينيه ، مع أن حاسة السمع عنده موجودة ، أما الفؤاد، وهو العقل بالطبع ، فهو آخر ما يتنبه في الطفل ؛ وهكذا فإن في خلق الله للإنسان أسراراً كثيرة وفيه خفايا أكثر لا يتسع الحديث هنا لذكرها ، وبقي العلم عاجزاً عن إدراكها أو الإحاطة ببعضها.

إن الماديين لا يستطيعون أن ينكروا هذه الأطوار في خلق الذرية بحال من الأحوال، ولا يمكنهم أن يدافعوا منها شيئا، اللهم إلا إذا أمكن أن تنكر الشمس وهي طالعة.

ولقد قال المفسرون في مناسبة هذه الآيات لما قبلها: إن الله تعالى أمر بالعبادات في أول السورة حيث قال جل ذكره : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣)

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ١٤.

(٢) سورة النحل، الآية ٧٨ .

(٣) سورة المؤمنون، الآيات ١-١١ .

قالوا: لما كان الاشتغال بعبادة الله لا يصح إلا بعدِ معرفته سبحانه وتعالى عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بعنوان الجلال والكمال، فذكر الاستلال بتقلب الإنسان في أدوار الخلقة وأطوار الفطرة، فقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان) أي آدم (من سلالة) أي خلاصة (من طين) (ثم جعلناه) أي نسله فحذف المضاف (نطفة) أي منيا من الصلب والترائب (في قرار مكين) وهو الرحم (ثم خلقنا النطفة علقة) أي صيرنا النطفة البيضاء علقة، أي قطعة دمِ حمراء (فخلقنا العلقة مضغة) أي صيرنا قطعة اللحم الحمراء على قدر ما يمضغ لا شكل فيها ولا تخطيط، (فخلقنا المضغة عظاما) أي جعلناها عظاما من رأس ورجلين وما بينهما، يعني أصبحت ذات شكل مخصوص ووضع معين (فكسونا العظام لحما) أي كسونا بما لنا من قوة الاختراع تلك العظام لحما بما ولدنا منها، ترجيعا لحالها قبل كونها عظاما، وقويناها وشددناها بالروابط والأعصاب.

﴿ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ مباينا للخلق الأول مباينة ما أبعدها، حيث جعله حيوانا وكان جمادا، وناطقا وكان أبكما، وسميعا وكان أصما، وبصيرا وكان أكمه.

وإذا كان لنا أن نتكلم عن تفاوت العطف بالفاء وثم، فإنا نقول: إن المعطوف بكلمة ثم مستبعد حصوله مما قبله هو المعطوف عليه، فجعل هذا الاستبعاد عقلا أو رتبة بمنزلة التراخي والبعد الحسي؛ لأن حصول النطفة من أجزاء ترابية غريب، وكذا جعل النطفة البيضاء دما أحمراً، وهذا بخلاف جعل الدم لحما (فخلقنا العلقة مضغة) وبخلاف تصليب المضغة وجعلها عظاما، الذي يدل عليه قوله تعالى: (فخلقنا المضغة عظاما) وكذا مد اللحم على العظم ليستره المصرح به في قوله سبحانه (فكسونا العظام لحما)

فإن العطف في هذه المواضع الثلاثة كان بالفاء؛ لأن المعطوف فيها ليس ببعيد ولا غريب عن المعطوف عليه، وحينئذ فلا يعترض بما قيل: إن مدة كل طور

أربعون يوما، وذلك يقتضي عطف الجميع بكلمة (ثم) إن نظر إلى آخر المدة وأولها، أو يقتضي العطف بالفاء إن نظر إلى آخرها فقط.

ووجه دفع الاعتراض ظاهر مما قدمنا وهو أن المتعاطفات بـ(ثُمَّ) بينها غاية البعد العقلي، فنزل منزلة البعد الحسي الزمني، وكان العطف بـ(ثم) بخلاف المتعاطفات بالفاء، فلم يكن بينها هذا البعد العقلي وإن كان بينها مطلق بُعد، فجاءت الفاء على أصلها ووضعها للترتيب والتعقيب.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١) أي تنزه عن كل شائبة ونقص وحاز جميع صفات الكمال، والمراد بالخالقين المقدرين، أي الصانعين يقال لمن صنع شيئاً: خلقه . إذ الخلق معناه : إيجاد الشيء بتقدير معين ووضع مخصوص ، فيقال لصانع الباب أو الكرسي مثلا: إنه خلقه. أي أوجده على شكل مخصوص وهندسة معينة. (٢)

فكلمة الخلق لا تُنفى عن البشر معنى الصنع وإنما هي منفية عنهم بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم، فليس ذلك إلا لله الواحد القهار.

نظائر لهذه الآية في القرآن الكريم:

لهذه الآية في إيرادها المعنى السابق أشباه ونظائر من آي القرآن الكريم جاءت بهذا المعنى بأساليب مختلفة، وجميع هذه الأساليب في أعلى درجات الإعجاز، وتلك خصيصة القرآن يأتي بالمعنى الواحد في عدة مواضع بأساليب مختلفة، والكل في أعلى درجات البلاغة والإعجاز، وهذا ما تنقطع دونه الأعناق.

من هذه الآي :

(١) قوله تعالى في سورة النحل: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾(٣)

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ١٤. .

(٢) فتح القدير/ للشوكاني/ ٣/ ٥٩٤ بتصرف. والتفسير القرآني للقرآن/عبد الكريم الخطيب/١١٢٢/٥..

(٣) سورة النحل، الآية ٤. .

تذكر هذه الآية مبدأ التطور في خلق الإنسان ثم نهايته مع الإعراض عن المراحل والتطورات التي بينهما.

والحكمة في ذلك أن هذه السورة جاءت لتعديد نعم الله تعالى على خلقه.

من أجل ذلك ذكرت الآية المبدأ الأول لتصوير الإنسان وتخليقه، ثم طوت المراحل المترتبة على هذا المبدأ وأتت بالنتيجة والغاية وهو أنه خصيم مبين، إذ إن ذلك في باب تعداد النعم ظاهر واضح ومشاهد محسوس، ومما يدل على أن هناك وسائط وأطواراً في الآية الكريمة وجود فاء التعقيب وإذا التي للمفاجأة، فإن كونه خصيمًا لا يعقب ولا يفاجيء كونه نطفة، والمعنى أنه قوي واشتد بتنقله في هذه الأطوار حتى أعقب ذلك وفاجأه أنه خصيم مبين، ومعنى أنه خصيم مبين أي شديد الخصومة بينها يفصح عما في نفسه بالنطق والبيان.

(٢) قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ (١)

تتصل هذه الجملة الكريمة بأول الآية قبلها : ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (٢)فهي بيان لكيفية خلق ما ذكر من الأناسي إظهارًا لما فيها من عجائب القدرة.

ومعنى قوله تعالى: (خلقًا من بعد خلق) أي حيوانًا سويًّا من بعد عظام مكسوة لحما، من بعد عظام عادية، من بعد مضغ، من بعد علق، من بعد نطف. (٣)

وأما قوله سبحانه: (في ظلمات ثلاث) فقد قال أئمة التفسير : إنها ظلمة الرحم وظلمة المشيمة التي هي غلاف الولد وظلمة البطن. (٤)

---

(١) سورة الزمر، الآية ٦. .

(٢) سورة الزمر، الآية ٦. .

(٣) أنظر تفسير أبن عطية/١٢/٥٠٤.

(٤) انظر المرجع السابق، وتفسير الفخر الرازي/٢٦/٢٤٥/ وتفسير الثعالبي/٤/٤٨.

أما أهل التشريح فقد قالوا ما قرب من هذا، فقد جاء في مجلة لواء الإسلام العدد الثاني شوال ١٣٨٧هـ ــ ١٥ فبراير ١٩٦٤م للأستاذ صلاح أبو إسماعيل ما نصه : ثم نرهف السمع إلى علم الأجنة لنسمعه يقرر أن الجنين في بطن أمه يكون محوطًا بثلاثة أغشية صماء لا ينفذ منها الماء ولا الضوء ولا الحرارة، ونرى هذا يلقي ضوءًا على قوله تعالى :﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾[1].

ولا نرى تفاوتًا كبيرًا بين الرأيين، فقد تكون المشيمة التي قال بها أئمة التفسير إحدى هذه الأغشية ويعلوها الغشاءان الآخران.

(٣) قول تعالى في سورة عبس :﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ. مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ. مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ. ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ. ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ. ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ . كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [2].

قال البيضاوي عند هذه الآية : دعاء عليه بأشنع الدعوات، وتعجب من إفراطه في الكفران، وهو مع قصره يدل على سخط عظيم وذم بليغ.

فإن قيل: الدعاء على الإنسان إنما يليق بالعاجز، فكيف يليق ذلك بالقادر سبحانه؟ والتعجب أيضًا إنما يليق بالجاهل بسبب الشيء، فكيف يليق ذلك بالعالم جل شأنه؟

فالجوابُ: أنَّ ذلك ورد على أسلوب كلام العرب لبيان استحقاقه لأعظم العقاب، حيث أتى بأعظم القبائح، كقولهم إذا تعجبوا من شيء : قاتله الله ما أخبثه...! وأخزاه الله ما أظلمه...! وقيل ما أكفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه، وأيًّا ما كان فهو ذم وتقبيح للإنسان حيث أعرض عن النظر والتفكير.

---

[1] سورة الزمر، الآية ٦ .

[2] سورة عبس، الآيات ١٧-٢٣ .

قوله سبحانه: (من أي شيء خلقه) شروع في بيان ما أنعم به عليه بعد المبالغة في وصفه بكفران نعم خالقه، والاستفهام فيه للتقرير، أي إيقاف الإنسان الكافر على حال شأنه وتعريفه بها، وهي حال حقيرة لا تستدعي أن يكون كافرًا متكبرًا. (١)

وذكر الجواب في قوله تعالى: (من نطفة خلقه) لا يقتضي أنَّ الاستفهام حقيقي، لأنَّ المراد بهذا الجواب ما هو على صورته،لأنه بدل من قوله: (من أي شيء خلقه) فكأنه قيل باديء ذي بدء (من نطفة خلقه).

وقوله جل شأنه (فقدره) أي علقه ثم مضغه إلى آخر خلقه، وقيل سواه كقوله ﴿ثم سَوَّاكَ رَجُلًا﴾(٢) أي قدَّرَ كل عضو في الكيفية والكمية بالقدر اللائق لمصلحته، كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(٣) والفاء على هذه الأقوال للترتيب في الذكر لا في الوجود الزمني، إذ المعنى أنه خلقه مصاحبًا للتقدير...

وقوله سبحانه﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ (٤) يصح أن يكون المراد بالسبيل طريق خروجه من بطن أمه فتكون أل عوضًا عن الضمير، والمعنى: ثم سبيله، أي طريق خروج الإنسان من بطن أمه يسره الله له وسهل عليه خروجه، ويصح أن يكون المراد به أيضًا السبيل العام، أي طريق الخير والشر(٥)، ويكون منصوبًا على الاشتغال بفعل مقدر تقديره: ثم يسر السبيل يسره، فالضمير في يسره للسبيل، أي سهل السبيل للإنسان، كقوله تعالى:"﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(٦)

---

(١) تفسير القاسمي ٦٠٦٢/١٧ بتصرف ، وتفسير اليغوي/٣٣٧/٨ .
(٢) سورة الكهف، الآية ٣٧ .
(٣) سورة الفرقان، الآية ٢ .
(٤) سورة عبس : الآية ٢٠ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن/ للقرطبي/٢١٨/١٩، زاد المسير في علم التفسير/ لابن الجوزي/ ٣١/٩ .
(٦) سورة طه، الآية ٥٠ .

وقوله جل وعلا: (ثم أماته فأقبره) عد الإماتة من النعم، لأنها وصلته في الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم " فأقبره " أي جعله في قبر يستره، وإنما لم يقل فقبره؛ لأن القابر هو الدافن بيده، والمقبر هو الله تعالى، يقال قبر الميت إذا دفنه وأقبره إذا أمر غيره أن يجعله في قبر، وكان القبر إكرامًا للإنسان حيث لم يكن كغيره من بقية الحيوانات يلقى على الأرض عند موته تأكله الطير والهوام وتنهشه السباع.

وقد أشارت الآية إلى إيجاب المبادرة بتجهيز الميت من غسله وتكفينه والصلاة عليه بالفاء التي تفيد التعقيب من غير مهلة في قوله "فأقبره".

وقوله تعالى : " ثم إذا شاء أنشره "أي أحياه بعد موته للبعث، ومفعول شاء محذوف، أي شاء إنشاره، وأنشره جواب " إذا " وعبر بكلمة "إذا" لأن وقت المشيئة غير معلوم، وأما سائر الأحوال المذكورة قبل فتعلم أوقاتها من بعض الوجوه، ثم تفوض إلى المشيئة. (١)

وقوله " كلا " ردع للإنسان عما هو عليه من الكبر والترفع والإصرار على إنكار التوحيد والبعث(٢)، وعلى هذا تكون متعلقة بما قبلها والوقف عليها حسن، ويكون قوله سبحانه :" كلا لما يقض ما أمره " سببًا لهذا الردع، وهذا ما قاله الزمخشري(٣) وتبعه البيضاوي، وقيل معناها،حقًّا، وبه قال الجلال المحلي وأبو السعود(٤)، وعليه تكون متعلقة بما بعدها، أعني قوله : "لما يقض ما أمره " والوقف حينئذ قبيح.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن/ للطباطبائي، ٢٠٨/٢٠ بتصرف .

(٢) الأساس في التفسير / لسعيد حوى / ٦٣٧٧/١١، فتح البيان في مقاصد القرآن/ للقنوجي البخاري/٨٣/١٥ .

(٣) الكشاف/ للزمخشري/ ٢١٩/٤. .

(٤) تفسير أبي السعود/١١٠/٥ – ١١١ .

وقوله تعالى :" لما يقض ما أمره " أي لم يفعل الإنسان من أول مدة تكليفه إلى حين إقباره ما أمره الله به مما افترضه عليه، فالضمير في "يقض" للإنسان بمعنى العموم، ويصح أن يكون راجعًا إلى الإنسان الكافر في قوله " قتل الإنسان " والمعنى عليه أن ذلك الإنسان الكافر لم يقض ما أمره به ربه من التأمل في دلائل عجائب خلق الله تعالى. (١)

خلافة الإنسان في الأرض

أولاً – وظيفة الخلافة :

إن الإعلان الإلهي عن خلق الكائن الجديد (الإنسان) جاء مرفوقاً ببيان المهمة التي أنيط بعهدته الاضطلاع بها وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (٢)إن تسمية هذا الكائن الجديد في سياق الإخبار بخلقه كانت تسمية بحسب وظيفته وهي الخلافة، وذلك ينطوي على دلالة بالغة في إبراز هذه الوظيفة والتنويه بشأنها، ولا زال القرآن الكريم بعد هذا الإعلان الأول يعظم هذه المهمة ويبين محتواها وأهدافها وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾(٣) وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.(٤)

---

(١) روح المعاني/٣٠/٤٥.
- وتفسير التحرير والتنوير/ لابن عاشور/٣٠/١٣٠.
- ومختصر تفسير ابن كثير/٣/٦٠٠ ـ٦٠١.
- ونظم الدرر في متناسب الآيات والسور/ للبقامي/٨/٣٣٠..

(٢) سورة البقرة ، الآية ٣٠ .

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٦٥ .

(٤) سورة فاطر ، الآية ٣٩ .

إن الخلافة- المهمة الوجودية للإنسان - تعني الخلافة عن الله تعالى لتنفيذ مراده في الأرض وإجراء أحكامه فيها، وهذا معناه أن يكون الإنسان سلطانا في الكون بغاية تطبيق المهمة التي كلفه بها المستخلف - الله- ائتماراً بما أمر وانتهاء عما نهي(١)، وهو ما شرحه الرسول ﷺ فيما رواه ثوبان إذ قال : قال رسول الله ﷺ (من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في الأرض وخليفة كتابه وخليفة رسوله) (٢)

هذه المهمة التي كلف الله بها الإنسان وجعلها غاية لوجوده تنبني على عنصر أساسي هو معنى الخليفة عن الله، ومن هذا العنصر تستمد جوهر حقيقتها وكل أبعادها: فالخلفية تقتضي أن يكون الهم الأكبر للخليفة ترقيه نحو مستخلفه، واقترابه منه ليحقق معنى الاستخلاف على الوجه الأفضل، ولذلك فإن الإنسان الخليفة جوهر خلافته أن يحصر همه وجهده في الاقتراب من الله مستخلفه، وذلك بالعمل الدائب والكدح المستديم لترقية ذاته وتنميتها حتى يبلغ من الاكتمال الدرجة التي يذكرها الله في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾(٣) .

إن تكامل الإنسان وترقيه لاقترابه من الله لا يكون إلا عبر منهاج العبادة، ولذلك قال الله تعالى في بيان قطعي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٤)، ومعنى

---

(١) انظر تفسير أبي السعود وتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور في تفسير هذه الآية، وقد اعترض بعض المفسرين أن يكون معنى الخلافة الخلافة عن الله لما يؤدي إليه ذلك من معنى النيابة التي تخل بالكمال الإلهي، وذهبوا في تفسيرها مذاهب مختلفة، انظر في ذلك: إلبهي الخولي: آدم عليه السلام : ١٢٣ وما بعدها، والمودودي – الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة : ١٠٧، ومحمد باقر الصدر – الإسلام يقود الحياة : ١٢٦ وما بعدها..

(٢) أورده المتقي الهندي في (كنز العمال) رقم ٥٥٦٤ ، وأورده السيوطي في جامع الأحاديث /٢٠/ ٧٤. وقال:
- أخرجه الديلمي / ٣/ ٥٨٦ / رقم ٥٨٣٤.
- وأخرجه ابن عدي / ٦/ ٨٤/ رقم ١٦١٦ .
ثم حكم عليه السيوطي بالضعف من حيث السند لكن معناه صحيح .

(٣) سورة الانشقاق، الآية ٦.

(٤) سورة الذاريات، الآية ٥٦ .

العبادة إسلام النفس في كل ما يفعل الإنسان ويذر لما يريده الله ويرضاه عبر الالتزام الكلي بفعل ما أمر به، وترك ما نهي عنه.

ولما كان الإنسان في طبيعة تركيبه مؤلفا من عنصر روحي هو النفخة الإلهية، وعنصر ترابي مادي، فإن الترقي والتنامي في اتجاه الله يكون شاملا للعنصرين معا، ولذلك أيضا فإن مسرح التكامل والترقي هيأه الله ليكون صالحا لهذه الطبيعة المزدوجة، فكانت الأرض مجالات لممارسة الخلافة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١).

وممارسة الخلافة في الأرض على سبيل تنمية الذات الإنسانية وتكميلها بمنهاج العبادة يقتضي التعامل مع هذه الأرض بما يدفع بالإنسان إلى اتخاذها طريقا لتعظيم الله وإكباره، والخضوع له، والسعي في محبته ونوال رضاه بما يناله من التدبر فيها والاعتبار بأحوالها من معرفة بالله وبكمال صفاته، وعظمة سطوته، وسعة رحمته، وبما يدفع به أيضا إلى استثمارها واستغلالها منافعها وتسخير مرافقها، بما يكتشف من أسرارها وقوانينها، وما يقيم فيها من عمران وتجهيز يحكم في سيطرته عليها وإخضاعها لإرادته، وقد جمع الله هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾(٢)

إن وظيفة الخلافة التي جعلت غاية للوجود الإنساني تعني بما تقدم من المعاني مباشرة الإنسان للكون بالروح وبالجسم: اعتبارا به واستثماراً لمنافعه وخيراته، كل ذلك تكميلا للذات في بعدها الفردي والجماعي وترقية لها في وجهتها إلى الله تعالى عبر منهاج العبادة ائتماراً بما أمر وانتهاء عما نهي.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠.

(٢) سورة هود، الآية ٦١ .

هذه الوظيفة بحقيقتها الآنفة الذكر قد هيئ الإنسان في أصل خلقته للاضطلاع بها، وإنجازها على الوجه الأكمل، ويتمثل ذلك بالأخص في حقيقتين أساسيتين.

أما الأولى : فهي طبيعة التركيب الذاتي للإنسان، فهذا التركيب يشتمل على جزء روحي يمكنه من السمو والعلو.

نحو الأفق الإلهي الأعلى ليقبس من هذا الأفق مضمون الخلافة أمرا ونهيا على سبيل الإدراك والاستيعاب والتحمل،كما يشتمل على جزء مادي يمكنه من مباشرة الأرض بالسعي فيها للإنشاء والتعمير، فالإنسان من حيث تركيبه وضع في قمة الكون، وكرمه الله بالنفخة الروحية ليكون قادرًا على أن تكُون له حركة فعالة في مجال يتلقى في أحد طرفيه الأمر الإلهي، وينفذ في الطرف الآخر ذلك الأمر على مسرح الأرض، وذلك هو جوهر مهمة الخلافة، وبالمقارنة فإنَّ الكائنات ذات الطبيعة الواحدة لم يعهد إليها الله مهمة الخلافة في الأرض؛ لأنها إذا ما كانت روحانية صرفًا فإنها لا تقوى على مباشرة المادة الأرضية بالفعل، وإذا ما كانت مادية صرفا عجزت عن أن تقبس من الأفق الإلهي أوامر الاستخلاف.

وأما الثانية فهي حقيقة التكليف: فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي حمل أمانة التكليف في حين أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، والتكليف هو مخاطبة الإنسان بمضمون الخلافة، وتمكينه من الاختيار بين أن يفي بما كُلف به، وبين أن يخل بالتزامه، على أساس من حرية الإرادة في الاختيار بين الإيفاء والإخلال، بعد التبصر بعواقب كل من الطريقين.

إنَّ التكليف على أساس من حرية الإرادة هو السبيل الوحيد إلى الترقي والاكتمال في منهج العبودية الذي هو روح الخلاف كما ذكرناه آنفا، ففرصة الاختيار بين أتباع الهوى والخلود إلى نوازع الهبوط، وبين اتباع الأمر الإلهي والتسامي إلى الأفق الأعلى هي التي تمكن الإنسان من مغالبة الهوى لتحقيق التسامي في ضرب من الجهاد النفسي الذي يؤدي إلى الترقي والاكتمال شيئا فشيئا

عبر التفاعل مع الكون: أخذا بالأوامر الإلهية فعلا وتركًا حتى الوصول إلى الإنسان الخليفة، وما كان الإنسان ليصل إلى تلك الدرجة دون تكليف، فالسماوات والأرض والجبال وكل المخلوقات الأخرى مقهورة على حركاتها مسلوبة الحرية فيها، ولذلك فإنها تظل ثابتة الوضع طيلة الدهر، لا فرصة لها في الترقي الذاتي لتمارس عبر الخلافة.

هذه المهمة الوجودية التي أنيطت بعهدة الإنسان كما رسمتها العقيدة الإسلامية بما بنيت عليه من الترقي الإنساني فردًا ومجتمعا عبر التفاعل مع الكون اعتبارًا وتعميرًا في خط العبودية لله تعالى، من شأنها أن تضفي على الوجود الإنساني القيمة العظمى، وأنْ تجعل منه المخلوق الأعظم في الكون؛ إذ هي مهمة تفسح أمامه من الآمال ما يدفع به إلى المزيد من الفعل في الكون، فالهدفُ المقصود بعيدٌ، ولكنه مرئي واضح ألا وهو الاقتراب من الله بإنجاز الطاعات، وليس أدفع إلى الارتكاز بالإنسان إلى مهاوي الهلاك، والتدني بالذات الإنسانية إلى الاستقالة من عمارة الكون، والسقوط في التظالم وممارسة السحق للكرامة الإنسانية، من شعوره باليأس والقنوط لما يظن أنَّ حياته قد استفدت أغراضها، وأنَّ وجوده في الكون أضحى ضربًا من العبث وهو ما سقطت فيه بعض المجتمعات قديما، وظواهره اليوم عند بعض الناس وفي أوساط الشباب خاصة في بلاد الغرب تطالعنا بها الأخبار يوما بعد يوم، وليس السبب في ذلك إلا الفساد في تصور المهمة التي على الإنسان أن يضطلع بها في الأرض، وهي مهمة الخلافة على أساس من عمارة الأرض بمنهج العبودية لله(¹).

(¹) انظر : محمد إقبال – تجديد الفكر الديني : ١٠٧ وما بعدها، ومحمد باقر الصدر- منابع القدرة في الدولة الإسلامية: ٧ وما بعدها .

ثانياً – منهاج الخلافة :

١- طبيعة المنهاج :

إن وظيفة الخلافة لما كانت هي الغاية من حياة الإنسان فإنها ستمثل المحور الذي تتراجع إليه كل منازعة في الفكر والسلوك، والخيط الذي ينتظم كل حركة وسكون في حياته، وهي بهذا المعنى تكون منهجا شاملا في التصرف الإنساني سواء في سياسة نفسه فردًا ومجتمعًا، أو في تعامله مع الكون، أو في صلته بخالقه، إذ حقيقة الخلافة كما تقدم ترقية الذات الإنسانية عبر التفاعل مع الكون على خط العبودية لله.

هذا المنهج الشامل للخلافة لما كان منهجا يهدف إلى غاية محددة فإنه يكتسي قطعا صبغة المعيارية، على معنى أنه سيتمثل في مجموعة من التحديدات والضوابط لما ينبغي أن تجري عليه حياة الإنسان في الفكر والسلوك في تصرفه إزاء الكون وإزاء خالقه.

إنَّ الله تعالى قد أرشد الإنسان إلى هذا المنهاج الخلافي منذ خلق الإنسان الأول ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (١)، ثم تعهد بعد ذلك ذرية آدم بالإرشاد الدائم لما ينبغي أن يسلكُوه لتحقيق الخلافة، حيث أرسل رسله تترى تبشر الأقوام بمنهاج الخلافة تذكيرًا بما هو ثابت فيه من حقائق الاعتقاد حينما يأتي عليه التناسي أو يؤخذ بعوامل التحريف والتبديل، وتشريعًا مستجدا للسلوك بحسب ما تنقلب إليه حياة الإنسان من أطوار في سلم الترقي والنضج العقلي والاجتماعي ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (٢).

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣١. .

(٢) سورة المائدة، الآية ٤٨. .

وقد جاءت النبوة الخاتمة نبوة محمد ﷺ تحدد المنهاج النهائي للخلافة، وتتوج الوحي المرشد الذي بصر الإنسان منذ خلقه بمسالكها، وهذا المنهاج النهائي هو الذي سيظل الموجه الأبدي للإنسان فيما ينبغي أن يعتقد من حقيقة الوجود، وفيما ينبغي أن يسلك في تصريف الحياة.

ويتصف هذا المنهاج النهائي للخلافة بشمول البيان لكل مناحي التصرف الإنساني في فكره وسلوكه، ومصدره الأوحد هو الله تعالى الذي أنزله بطريق الوحي إلى نبي مختار وكلفه بأن يبلغه للناس، وأسفر هذا الوحي عن أصلين نصيبين هما: القرآن، والحديث، اشتملا على كل ما في منهاج الخلافة من مضمون، وجعلا المرجع الأبدي لهذا المنهاج، يرجع إليهما الإنسان ليصوغ حياته على قدر ما فيهما من التحديد والإرشاد.

إلا أن هذا المنهاج الخلافي الذي ضبطته نصوصُ القرآن والحديث كمظهرين متكاملين للوحي لئن كان محددا لما ينبغي أن تنساق فيه حياة الإنسان، فإنَّ هذا التحديد اختلف في التفصيل والإجمال بين مجال وآخر من مجالات الحياة، فإذا كان في بعض هذه المجالات مثل مجال التصور لما هو كائن من حقائق الغيب، ومجال العلاقة بين الله والإنسان، ومجال البناء الأُسري للإنسان ينحو منحى التفصيل والتفريع، فإنه في مجالات أخرى تتعلق خاصة بالتعامل الاجتماعي والتعامل الكوني جاء ينحو منحى الإجمال والكلية.

ثم إن الأحكام المعيارية التي تشتمل عليها نصوصُ القرآن والحديث محددة لما ينبغي أنْ يكون عليه سُلوك الإنسان هي أحكام متعلقة بأجناس الأفعال، مثل تعلق المنع بجنس العدوان، وتعلق الإلزام بجنس العدل، ومن البيّن أنَّ الحياة الفعلية للإنسان في انقلابها عبر الزمن ينشأ فيها من الصور المستأنفة والأوضاع المستجدة ما لا يكون انتماؤه إلى أي جنس من الأجناس التي تناولتها الأحكام

انتماء مباشراً، أو ما يكون مترددا في انتمائه بين أكثر من واحد منها على اختلاف أحكامها، ومع هذا أو ذاك، فإنَّ الإنسان قد تطوح به الأقدار في بعض الأزمان أو في بعض الأكوان إلى وضع لا يبلغه فيه وحي، ولا يقف فيه على قرآن ولا سُنة، فيجد نفسه في خضم الكون يواجه المصير دون منهاج للخلافة تقوم حدوده على أساس من الوحي.

ومن جهة أخرى فإنَّ الإنسان مقابل هذه الأوضاع التي يجد فيها نفسه إزاء منهاج الخلافة كما رسمه الوحي الإلهي، ومن افتقاره في تصريف حياته إلى ما يغطي تفاصيل ذلك التصريف في مستجد أطواره، أو افتقاره إلى أصل المنهاج جملة، قد زوده الله تعالى بالعقل، وجعله أساسًا للتكليف بالخلافة لما ركب فيه من قدرة على إدراك الحق وتحمل الأمانة، وقد نوه به أيما تنويه، ودعا الإنسان الدعوة الملحة إلى أن يجعله رائدًا في تحري الحقيقة، وأساسًا في تحقيق الخلافة، أفلا يكون هذا العقل منبعا ثانيا للحقيقة يصاغ منه منهاج الخلافة: استكمالا لما وقف عنده منبع الوحي، وتأسيسا حينما لا يبلغ عطاء ذلك المنبع؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عليه في العنصر التالي.

٢- منهاج الخلافة بين الوحي والعقل:

إن السؤال الذي طرحناه آنفا يتعلق بالوحي والعقل من حيث كونهما وسيلتين للتعريف بالحقيقة، ولما كان الطرح في هذا المقام موجها وجهة المقارنة بين الوسيلتين فيما يمكن أن يكون لكل منهما من دور في تأسيس منهاج الخلافة، فإن هذه المقارنة تصبح متوقفة على معرفة حقيقة كل من الوحي والعقل وخصائصه؛ إذ الدور التأسيسي لكل منهما يتحدد بتلك الحقيقة وتلك الخصائص.

أ- حقيقة الوحي وخصائصه :

الوحي في أصل معناه هو تلك الطريقة في العلم التي يتلقى بها النبي من الله تعالى تعاليم الرسالة التي اختير لتبليغها إلى الناس ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾(١) ، ولكنه أصبح يطلق أيضا على التعاليم باعتبار مضمونها من المعاني كما هو الأمر بالنسبة للحديث الشريف، أو باعتبار مضمونها وألفاظها كما هو الأمر بالنسبة للقرآن الكريم(٢) .

وقد أطلق على الوحي في هذا المعنى أسماء أخرى متعددة تختلف في وجهة التسمية، ولكنها تلتقي كلها عند معنى التعاليم الدينية التي مصدرها الله تعالى، ومبلغها إلى الناس النبي المرسل، ومن بين هذه الأسماء: السمع، باعتبار أن هذه التعاليم مسموعة للإنسان من قِبل الأنبياء، والنقل باعتبار أنها منقولة عنهم، والشريعة، باعتبار أنها مشرعة من قبل الله، والنص، باعتبار أنها منضبطة في نصوص نازلة من قبل الله تعالى، وأي اسم استعملناه من هذه الأسماء في هذا المقام فإنَّ المقصُود منه تلك التعاليم التي جاء بها محمد ﷺ مبلغا إياها عن ربه منضبطة في النص القرآني، ونصوص الحديث النبوي الشريف.

وللوحي بهذا المعنى خصائص معينة، ترجع إلى اعتبار أصل حقيقته، أو اعتبار المعاني، أو اعتبار الأسلوب، أو اعتبار النقل، ونذكر من تلك الخصائص ما يلي :

أولاً : إن الوحي كله قرآناً وحديثاً إلهي المصدر، ولا مدخل لذات النبي فيه بوجه سوى التحمل والتبليغ للناس، أما القرآن فهو إلهي المصدر لفظا ومعنى،

---

(١) سورة الشورى، الآية ٥١ .

(٢) انظر في تعريف الوحي ومعانيه: محمد عبده – رسالة التوحيد: ١٠٩ وعبدالعال سالم مكرم– الفكر الإسلامي بين العقل والوحي : ١٨. .

وأما الحديث فهو إلهي المصدر في معناه دون لفظه(١) ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (٢).

ثانياً : الوحي قرآناً وحديثاً منه ما هو قطعي الورود: أي ثبتت له صفة الوحي على وجه القطع، ومنها ما هو ظني الورود، أي ثبتت له صفة الوحي على سبيل الظن ، وقطعي الورود هو القرآن كله ، وما تواتر من الحديث، والظني ما سوى ذلك من الحديث، وهو فقط الذي يحتمل نظرا من وجهة ثبوته.

ثالثاً : بعض ما جاء في الوحي منسوخ ببعض آخر، فالقرآن قد ينسخ القرآن والحديث، والحديث قد ينسخ الحديث، وهذا النسخ قد يكون في اللفظ وقد يكون في الحكم ، كما قد يكون إسقاطا لتكليف ، وقد يكون إبدالا له إلى ما هو أغلظ أو أخف (٣).

رابعاً : الوحي حقائقه مطلقة غير حقائقه للتعقيب الإنساني في ذاتها، ودور الإنسان إزاءها إنما هو دور الاستجلاء فحسب، وإنما كانت مطلقة لأنها نابعة من علم إلهي مطلق بما هو كائن في عالم الغيب، وبما ينبغي أن يكون في حياة الإنسان بناء على العلم بحقيقة ذاته وحقيقة أطواره من بدايته إلى نهايته، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (٤).

خامساً: ما جاء في الوحي لا يخالف قضايا العقل أي مبادئه بل هو جار على مقتضاها، وما يظن أنه مناقض للعقل ليس إلا متعاليا عن فهمه دون أن يكون مناقضا له (٥).

---

(١) انظر في هذه المسألة : مناع القطان – مباحث في علوم القرآن : ٢٣ وما بعدها.

(٢) سورة النجم، الآيتان ٣ ، ٤.

(٣) انظر : إمام الحرمين الجويني –الورقات : ٢١، وانظر تفصيله في : الشاطبئ – الموافقات: ٧٠/٣، وأبو الحسن البصري- المعتمد في أصول الفقه : ٣٩٣/١ وما بعدها .

(٤) سورة الأحزاب، الآية ٣٦. .

(٥) انظر هذه الخاصية والاستدلال عليها في : الشاطبي – الموافقات : ١٥/٣. .

سادساً : الوحي ممحض للحكم في أجناس الأفعال (كحلية البيع وحرمة الربا)، أما أفراد تلك الأفعال المتعلقة بالزمان والمكان فإن الأحكام تتعلق بها بواسطة النظر العقلي حيث يتم إرجاعها إلى أجناسها المناسبة(١).

سابعاً: خطاب الوحي خطاب كلي عام للناس كافة، سواء كان في صيغته اللفظية كليا أو جزئيا، إلا ما جاء دليل على تخصيصه، وذلك لأن الإسلام جاء يخاطب كل البشر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾(٢) (٣)وهو ما يقتضي أن تكون عمومية الخطاب مطلقة من قيود الزمان والمكان والتبعيض(٤).

ثامناً: الوحي منضبط في نص يجري على أساليب العرب في القول، فاستكشاف معانيه ينبغي أن يكون على أساس تلك الأساليب.

تاسعاً: من الوحي ما هو قطعي الدلالة، وهو الذي لا يحتمل إلا معنى واحدا بحيث يكون لفظه نصا في معناه فلا يحتاج في فهمه إلى غيره، وقد يكون ظني الدلالة وهو الذي يتردد المعنى فيه بين وجوه محتملة تتسع لها أساليب العرب في القول، كالتردد بين الحقيقة والمجاز، وبين الإطلاق والتقييد، وبين العموم والخصوص.

---

(١) انظر نفس المصدر : ٢٦/٣، وتوضيحه أن الوحي يحكم على البيع بالحلية ولكن العملية التي يقوم بها شخص معين في مكان وزمان معينين، ينظر فيها العقل فيلحقها بالبيع حيث تأخذ حكم الحلية أو الربا فتأخذ حكم الحرمة .

(٢) سورة سبأ : الآية ٢٨.

(٣) انظر تفضيله في : الشاطبي – الموافقات : ٣٠/٣ .

(٤) يستشهد البعض في هذا المقام بحديث منسوب إلى الرسول عليه السلام هو قوله: (حكمي على الواحد كحكمي على الجماعة)، ولكن هذا الحديث قال فيه السخاوي: لا أصل له وإن صح معناه (مختصر المقاصد الحسنة ص ٩٨ طبعة المكتب الإسلامي بيروت ط. الثالثة سنة ١٤٠٣/١٩٨٣ تح، محمد الصباغ، وأورده الشوكاني في (الفوائد المجموعة) ٢٠٠ (الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة تحقيق عبد الرحمن المعملي اليماني، ط. السنة المحمدية بمصر سنة ١٣٨٠ / ١٩٦٠ .

ب- حقيقة العقل وخصائصه :

العقل وسيلة للإدراك والتمييز والحكم، وقد جاءت معاجم اللغة توجه معنى العقل وجهة الإدراك الذي يؤدي إلى النجاة ويعصم من الهلكة، كما جاء في القرآن الكريم توجيه معنى العقل إلى تلك القوة المميزة في الإنسان التي تعرفه بالحق والخير وتهديه إليهما، وبالباطل ووسيلة إنسانية هي العقل الذي يتسع بهذا المفهوم ليصبح مستجمعا لكل قوي الإدراك والتمييز في الإنسان، وهو ما يشير غليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾(١).

لقد جعل الله هذا العقل مناطا للتكليف، وهذا يعني ابتداء أنَّ منهج الخلافة بأسره متأسس على العقل الإناسي في تنزيله على الأرض، فهو وسيلة ذلك التنزيل ولولاه ما كان وجد منهج للخلافة أصلا.

وهذا الوضع الذي تبوأه العقل في التنزيل الأرضي لمنهج الخلافة يجعل دوره عظيما في إنجاز ذلك التنزيل، لما يستلزم ذلك الإنجاز من التحرك بين ذلك المنهج في صورة الوحي الإلهي المتعالي، وبين الواقع المادي لحياة الإنسان في دائرة الكون حركة تجعل من ذلك الوحي الإلهي في صورته المجردة واقعا حياتيا نافذًا، وهو ما يقتضي استيعاب الوحي المجرد من جهة، تكميل ما تركه للتفصيل بحسب المنقلبات المستمرة من جهة أخرى، والعمل على سوق هذا وذلك في سبيل التنفيذ العملي من جهة ثالثة.

وقد جاء القرآن الكريم يصور هذا الدور العظيم المنوط بعهدة العقل، حيث جاء من الحث على إعمال العقل، ومن الثناء على من يستعمله، واللوم والتقريع لمن يهمله شيء كثير منن الآيات القرآنية، ولذلك ذهب الكثير من المفكرين

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٣٦.

الإسلاميين إلى أن أول واجب على الإنسان أن يستفتح به حياته الراشدة في نطاق التكليف هو النظر العقلي ؛ لأن ذلك النظر العقلي هو الفاتحة الضرورية لتحمل المنهج الخلافي طيلة الحياة(١) .

إن العقل الإنساني وسيلة مبلغة إلى الحق سواء في مجال الكشف أو في مجال التقدير والمعايرة، ولو لم يكن كذلك لما أحتفل به القرآن ذلك الاحتفال، إلا أن وصول العقل إلى الحق كشفا وتقدير ليس متعلقا بمطلق الحركة العقلية، على اعتبار أنه بمقتضى كونه عقلا يصل إلى الحقيقة حتما مثلما الوحي باعتبار كونه وحيا يصيب الحق حتما، بل العقل وهو الوسيلة الإنسانية رهين في إصابته الحق لشروط وقيود وحدود تمثل كلها عنصرا أساسيا في تحليل دور هذه الوسيلة في التنزيل الأرضي لمنهج الخلافة.

فالعقل ليس وسيلة للكشف المباشر على الحق، بل يسلك إلى الحق طريقا صارما عبر ما يسمى بالنظر أو الفكر، وهذا الطريق يتصف بالمرحلية والتدرج والترابط، فهو طريق المقايسة والموازنة، والانتقال بين المقدمات للوصول إلى النتائج، وبين المعاليم للوصول إلى المجاهيل، وهذا الطريق الدقيق المسالك تحق به جملة من الأخطار التي تهدد بإعاقة العقل عن إصابة الحق، فالإنسان خلق عجولا مما قد يعرضه لتعجل المراحل في النظر العقلي، وركب على نزعات من الهوى قد تشوش عليه ترتيب تلك المراحل، واكتسب في خضم حياته الاجتماعية الإلف والعادة والتقليد والإنشداد إلى موروث الآباء والأجداد مما قد يعوقه عن الانطلاق في مراحل النظر، وكل ذلك يؤول بالعقل إلى الوقوع في الخطأ من حيث خلقه الله وسيلة لمعرفة الحق.

---

(١) هذا رأي المعتزلة وبعض الأشاعرة، ورأي آخرون ومنهم الأشعري وبعض أتباعه أن أول واجب على الإنسان هو معرفة الله، انظر : الإيجي – المواقف ١/١٢٣.

وإن كان العقل حينما يسلك المراحل الصحيحة في النظر يصل ضرورة إلى الحق(١)، فإن هذا الحق الذي يصل إليه حق نسبي ومحدود، سواء في الكشف ما هو كائن، أو في تقدير ما ينبغي أن يكون؛ وذلك لأن العقل في سبيل الوصول إلى الحق يتحرك في معطيات الحس، وإبداعه إنما هو في الانطلاق منها الإدراك ما وراءها من المعقول المجرد، ولولا معطيات الحس لما كانت حركة عقلية كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢).

ومن البيّن أن معطيات الحس محدودة بحدود مادتها وهي ظرف الزمان وظرف المكان، فالحواس تجمع محصولها منهما لتقدمه إلى العقل.

إن معطيات الزمان والمكان لا تتعلق بالأشياء تعلق بيان إلا من حيث هي آثار وشواهد على ثبوت حقيقتها، وعلامات على خصائصها وصفاتها، أما كنه الأشياء وماهياتها فهي أبعد من أن تنالها بالبيان معطيات الزمان والمكان، وإذا كان هذا الأمر متحققا في الأشياء العالمية ذات الطبيعة المادية حيث يكشف العلم يوما بعد يوم عن غرابة كنهها(٣) ، فإن عالم الغيب أبعد من أن تدل على كنهه معطيات الزمان والمكان، وبناء على ذلك فإن المعرفة العقلية في مجال الأشياء لا يتعدى نطاقها حدود الظواهر والصفات والآثار إلى حقيقة الماهيات والأكناه(٤).

وكذلك الأمر بالنسبة للحق فيما ينبغي أن تكون عليه حياة الإنسان، فمعرفة العقل محدودة في ذلك المجال أيضًا، ذلك لأنَّ الحكم العقلي. المعياري لما ينبغي أن

---

(١) ذلك ما ذهب إليه الإسلاميون، وعبروا عنه بأن النظر الصحيح يؤدي إلى العلم، وإن اختلفوا في طبيعة تلك التأدية بين قائل باللزوم العادي أو العقلي كالأشاعرة، وقائل بالتوليد كالمعتزلة، وقائل بالإعداد كالفلاسفة، انظر: الآيجي – المواقف: ١/١٠٧..

(٢) سورة البقرة، الآية ١٧١ .

(٣) انظر محمد باقر الصدر – فلسفتنا : ٣٣٢ في حديثه عن حقيقة المادة وانظر : محمد ياسين عربي : مواقف ومقاصد في الفكر الإسلامي المقارن : ١٧٧ في حديثه عن حقيقة الزمان .

(٤) انظر : محمد عبده – رسالة التوحيد : ٥٧ .

تكون عليه حياة الإنسان ينبني على المعطيات المتعلقة بهذه الحياة مأخوذة من ظروف المكان والزمان، وهذه الظروف لا يدرك منها في تعاقبها على حياة الإنسان إلا فصول محدودة جدا بالنسبة لما فات من عمره وما هو آت منها، ولا يدرك منها في تعاقبها على حياته ذاتا إلا أحوال قليلة ظاهرة في الشعور بالنسبة لذلك العالم المخفي في اللاشعور (١).

وإذا كان العقل لا يملك من المعطيات المتعلقة بذات الإنسان وحقيقته، والمتعلقة بفصول حياته ماضيا ومستقبلا إلا النزر اليسير فكيف يكون قادرًا على إصابة الحق المطلق في تقدير ما ينبغي أن تكون عليه الحياة فعلا وتركا ؟ إن قصاراه في هذا المجال أن يصيب الحقيقة النسبية المتعلقة بالظروف المكاني والزماني المعين بحسب ما تتوفر له من معطيات في ذلك الظرف، وهو ما يؤكده تاريخ العقل البشري فيما يرسم من مناهج حياتية فإن هذه المناهج جاء بعضها ينقض بعضا على مر الزمن، حتى ليصعب أن نظفر بحكمة عقلية في مجال التقدير ثبتت صلاحيتها لحياة الإنسان في كل مكان وزمان.

إن العقل الإنساني محكوم بظروف المادة فهي مجال حركته ومنطلق إبداعه، وإذا كان بما جعل به مناطا للتكليف قادرًا في الإدراك على تجاوز المادة إلى ما وراءها من الحقائق المجردة، وقادرًا على إصابة الحقيقة في تقدير السلوك الإنساني، فإنه في كل ذلك محدود القدرة بما قيد به من ظروف مادية يتحرك في مجالها ويتخذ منها معطيات الإبداع، وقد اكتشفت الناس اليوم خطأ ما ساد من وهم في بداية ازدهار الحضارة الغربية بأن العقل الإنساني يتصف بالقدرة على إصابة

---

(١) انظر في ذلك : الكسيس كاريل – الإنسان ذلك المجهول.

الحق المطلق، فبدأ منذ حين يوضع في حجمه الحقيقي الذي كون به قادرا على إدراك الحق، وتقدير الخير، ولكنه الحق النسبي والخير النسبي أيضا (١).

٣- تأسيس منهاج الخلافة بين الوحي والعقل :

إن البيانات الآنفة الذكر المتعلقة بالوحي والعقل وخصائصهما تعود بنا إلى التساؤل الذي طرحناه منذ حين فيما يتعلق بما يمكن أن يكون من دور كل منهما في تأسيس منهاج الخلافة، فبناء على تلك البيانات هل المؤسس لذلك المنهاج والضابط لحدوده هو الوحي وحده؟ أم أن العقل الإنساني له من القدرة ما يقوى به على التأسيس المستقل انفرادا عن الوحي أو تكميلا له ؟ أم أن له دورا محدودا يشترك فيه مع الوحي في تأسيس، المنهاج وضبط حدوده؟

إن هذه التساؤلات كانت قواما لقضية عقائدية شغلت الفكر الإسلامي وأخذت حيزا مهما من جهده، ونشأت فيها أنظار مختلفة تتباعد إلى حد التناقض أحيانا، وتقارب إلى حد يوشك بها على الالتقاء أحيانا أخرى.

أ- خلفية تاريخية: عرفت هذه القضية في الفكر الإسلامي بقضية (الحسن والقبح)، وبحثت بهذا العنوان في علم أصول الدين إما مباشرة، أو تحت قضايا أخرى كقضية (النظر والمعارف)، وقضية (التعديل والتجوير) وقضية أفعال الله تعالى من حيث الجواز والوجوب، كما بحثت في أصول الفقه في مبحث (الحكم الشرعي).

وقد كان المنطلق في بحثها منطلقا عقائديا يتعلق بالتصور الإلهي فيما يتم به الكمال لله تعالى، من أن ذلك الكمال لا يتم إلا بإثبات الإرادة المطلقة له، فتكون تلك الإرادة هي المؤسس الوحيد لمنهج.

---

(١) يظهر هذا فيما آل إليه أمر الكثير من العلماء والمفكرين من اعتناق الإيمان بالوحي بعد الافتتان بالعقل.

خلافة الإنسان فيما ينفرد به الوحي مطلقا من تقدير لأفعال الإنسان وإيجاب فيها فعلا وتركا، أو أن ذلك الكمال الإلهي يتحقق بإثبات عدل الله ولطفه بعباده فيما خلق لهم من عقل أفسح له مجالا في تقدير الأفعال وإيجابها فعلا وتركا.

إلا أن هذا المنطلق العقائدي اختلط أمره بمضاعفات طارئة تسبب فيها وضع الصراع المذهبي الذي حصل بين المسلمين، واتصف بالحدة والانفعال مما وجه القضية أحيانا توجيها متأثرا بالنزعة المذهبية الضيقة، فكان للهوى دور في توجيه البحث وتعقيده، وفي حياده عن الوجهة الحق أحيانا، ومن كل هذه الاعتبارات ترددت القضية بين ثلاثة محاور أساسية :

الأول : قيمة الأفعال الإنسانية في منهج الخلافة، فهل تحمل هذه الأفعال قيمة الحق في ذاتها، أم أن قيمة الحق تضفي عليها من خارجها ؟

الثاني : الجهة التي لها صلاحية التقدير لتلك القيمة كشفا وإضفاء، أهي الوحي أم العقل ؟

الثالث : الجهة التي لها صلاحية الإيجاب فعلا وتركا لتلك الأفعال بناء على قيمتها المكتشفة أو المضفاة، أهي الوحي أم العقل ؟

أولا – قيمة الأفعال الإنسانية : ترددت آراء الإسلاميين في تحليل قيمة الأفعال الإنسانية بين طرفين متقابلين تتوسطهما آراء فيها محاولة للجمع والتقريب.

فالأشاعرة انطلاقاً من مذهبهم في نفي العلل والأسباب الكونية وإرجاع كل ما يبدو من ذلك إلى الله بصفة مباشرة إمعانا في إثبات القدرة والسيطرة له ذهبوا إلى أن أفعال الإنسان ليست إلا حركات متساوية تخلو من كل قيم في ذاتها، والخبر الشرعي هو وحده الذي يضفي عليها قيمتها، فيصير بعضها حسنًا وبعضها قبيحًا

بما أضفى عليها الشرع لا بما كشف من قيمة ذاتية فيها، ولما كان الأمر كذلك فإن العقل الإنساني ليس له من دور في تقدير الأفعال : لا كشفا لقيمتها، إذ ليست لها قيمة ذاتية، ولا إضفاء من عنده، لأنه ليس مؤهلا لذلك، ولذلك فإنه قبل ورود الشرع تتساوى كل الأفعال في قيمتها: الكذب والصدق والأمانة والخيانة⁽¹⁾.

إلا أن هذه القطعية في نفي ذاتية القيمة في أفعال الإنسان ونفي مدخلية العقل فيها طرأ عليها بعض التعديل عند متأخري الأشاعرة نتيجة للحوار الواسع الذي دار حول القضية، وبنى ذلك التعديل على تحليل لطبيعة القيمة موضوع البحث، فقيمة الفعل الإنساني إما أن تعتبر فيها صفة النقص والكمال فيه، أو الملاءمة لغرض الإنسان ومصلحته والمنافرة لهما، أو ما يتعلق به من مدح وثواب ومن ذم وعقاب، فالقيمة بالاعتبار الأول والثاني هي قيمة ذاتية في الأفعال، وبإمكان العقل الكشف عنها، وأما بالاعتبار الثالث فهي من إضفاء الخبر الشرعي وحده، قال الإيجي ملخصا ما آل إليه الأمر عند الأشاعرة (الحسن والقبح يقال لمعان ثلاثة : الأول صفة الكمال والنقص، يقال العلم حسن والجهل قبيح، ولا نزاع أن مدركه العقل، الثاني ملاءمة الغرض ومنافرته، وقد يعبر عنهما بالمصلحة والمفسدة، وذلك أيضا عقلي... الثالث تعلق المدح والثواب والذم والعقاب، وهذا هو محل النزاع فهو عندنا شرعي) ⁽²⁾.

ويقابل هذه الوجهة في تقدير الأفعال الإنسانية وجهة تبناها المعتزلة وانطلقوا فيها من إيمانهم بالأسباب والعلل في الكون في نطاق التقدير الإلهي الشامل، وتقوم تلك الوجهة على إثبات قيمة ذاتية لأفعال الإنسان، فكل فعل إنساني

---

(1) انظر هذا الرأي والأدلة عليه في : الآمدي – غاية المرام : ٢٣٤ والأحكام : ١/١١٧، والشهرستاني – نهاية الأقدام : ٢١٥، ٢٧٠، والغزالي – الاقتصاد في الاعتقاد : ١٧١، والمستصفى : ١/٥٨، والإيجي والجرجاني – المواقف وشرحه : ٢/٣٩٣.

(2) الإيجي – المواقف : ٢/٣٩٣، وانظر : الآمدي – غاية المرام : ٢٣٥، والرازي – معالم أصول الدين : ٢٠٢ .

يحمل في نفسه قيمة يكون بها حسنا أو قبيحا، ولا علاقة لتلك القيمة في وجودها بعامل خارجي، وحتى الوحي إنما هو كاشف عن تلك القيمة فحسب، إذ هي سابقة في وجودها عليها، قال القاضي عبد الجبار: (اعلم أن النهي الوارد عن الله عز وجل [أي الوحي] يكشف عن قبح القبيح لا أنه يوجب قبحه [أي يحدث القبح ويضفيه]، وكذلك الأمر يكشف عن حسنه لا أنه يوجبه) (¹).

ثانياً – تقدير الأفعال : ينبني على هذا الأساس أن تقدير الأفعال، أي الحكم عليها بالحسن والقبح لا يكون تقديرا مبنيا على معطيات خارجة عن ذات الأفعال، بل هو عبارة عن كشف عن قيمتها الأصلية فيها، ويحسب ما يسفر عنه ذلك الكشف من قيمة الحسن والقبح يحكم على الفعل بأنه حسن أو قبيح.

وفي تحديد الجهة المؤهلة للكشف عن قيم الأفعال حلل المعتزلة أفعال الإنسان من حيث تعلق القيم بها، وقالوا: إن أفعال الإنسان منها ما تكون قيمة الحسن والقبح لازمة له لاعتبارات ظاهرة، ومنها ما لا تكون لازمة له في الظاهر، ولكن اعتبارات خفية تضفي القيمة على الأفعال.

والنوع الأول يستطيع العقل إلى جانب الشرع أن يكشف عن قيمة.

الأفعال فيه : إما بالضرورة دون تأمل وتفكر، كالكشف عن حسن الشكر للمنعم ، وحسن دفع الضرر عن النفس، أو بالنظر والتأمل كالكشف عن قبح الصدق المؤدي إلى ضرر، والكذب المؤدي إلى نفع، وأما النوع الثاني فإن الشرع وحده هو القادر على الكشف عن قيمته بما يرد فيه من أمر ونهي دالين على الحسن والقبح، ويدخل في هذا النوع كل تلك الأفعال التعبدية التي جاء الشرع مخبرا عن حدودها ومقاديرها وتفاصيلها قال القاضي عبد الجبار : هم [أي المخالفون]

(¹) القاضي عبد الجبار – المحيط بالتكليف: ٢٥٣-٢٥٤، وانظر أدلة المعتزلة على ذلك في المغني : ٦ (١) / ٢١٤، والآمدي – الأحكام : ١/١٢٠، ونهاية الأقدام : ٣٧٣.

قصورا القبيح على النهي [أي قصروا الكشف عن القبح على الوحي]، ونحن قسمنا الحال في المقبحات، فقلنا : إن فيها ما يعرف بالعقل، وفيها ما يعرف بالنهي) (١).

وهذه الوجهة التي أسسها المعتزلة في تقدير الأفعال بناء على ذاتية القيمة أخذ بها أغلب المسلمين من سائر الفرق الأخرى، وهو ما ذكره الإمام ابن تيمية في قوله: (الحنفية وكثير من المالكية والشافعية والحنبلية يقولون بتحسين العقل وتقبيحه، وهو قول الكرامية والمعتزلة، وهو قول أكثر الطوائف من المسلمين)(٢)

ثالثاً – إيجاب الأفعال الإنسانية :

المقصود بالإيجاب الحكم الإلزامي بإتيان الفعل أو تركه بصيغة الأمر أو النهي، وهو معنى التكليف وتحميل الأمانة، ومن البين أن الإلزام بالأفعال مبنى على قيمتها، فإذا كانت حسنة كان الإلزام بالفعل، وإذا كانت قبيحة كان الإلزام بالترك، وقد نبنى على الاختلاف في جهة التقدير كما مر ذكره اختلاف في جهة الإيجاب.

فالأشاعرة بناء على رأيهم في أن الشرع هو المضفي على الأفعال قيمتها، وهو بالتالي المقدر للأفعالِ، ذهبوا إلى أن الوحي وحده هو الموجب في الأفعال إتيانا وتركا، وليس للعقل مدخل في ذلك بوجه من الوجوه، وبناء على ذلك فإن الإنسان إذا لم يبلغه وحي لا يكون مكلفا بحسب العقل بأي وجه من وجوه التكليف، فلا يتعلق بأفعاله ذم ولا يترتب عليها عقاب(٣).

---

(١) القاضي عبد لجبار – المحيط بالتكليف: ٢٥٤، وانظر : المغني ٦ (١) / ٥٨ والإيجبي – المواقف: ٣٩٤/٢ .

(٢) ابن تيمية : الفتاوى : ٤٢٨/٨، وانظر آراء الموافقين لهذه الوجهة في : ابن تيمية – الفتاوى ٤٣٣/٨، والماتريدي – التوحيد : ٢٢١، وابن الهمام – المسايرة : ١٧٩، وابن عبد الشكور وعبد العلي الأنصاري – مسلم الثبوت وشرحه : ٢٥/١.

(٣) انظر : الآيجبي- المواقف : ٣٩٣/٢، والغزالي- الاقتصاد في الاعتقاد : ١٨٤، والبغدادي – أصول الدين: ٢٦٢ .

أما المعتزلة فإنهم أسسوا رأيهم في الإيجاب على رأيهم في التقدير، فلما كان الوحي عندهم هو المقدر لكل الأفعال الإنسانية، والعقل يشترك معه في التقدير في بعض تلك الأفعال، فإن الإيجاب فيما اختص الوحي بتقديره يكون موقوفا عليه، ولا مدخل للعقل فيه.

وأما الأفعال التي تدخل في مجال تقدير العقل، فإن جاء فيها وحي فهو الموجب فيها، والعقل ليس إلا مدركا لذلك الإيجاب لإدراكه للقيم التي بني عليها، وإذا لم يرد فيها وحي على إنسان ما فإن ذلك الإنسان يكون عقله موجبا للأفعال التي هي من جنس ما يقدر على تقديره ، ويكون بالتالي مستحقا للمدح والذم، وللثواب والعقاب ، ولهذا فقد أثبت المعتزلة التكليف العقلي على من لم يبلغه الوحي(١).

وقد فرق الماتريدية ومعهم ابن تيمية بين التقدير في الأفعال والإيجاب فيها، إذ إنهم رغم ما ذهبوا إليه من القول بقدرة العقل على التقدير في شقٍ من أفعال الإنسان، فإنهم قرروا أنه ليس مؤهلا للإيجاب استقلالا ف تلك الأفعال حتى وإن لم يرد وحي فيها، وذلك بناء على أن العقل وإن كان قادرا على التقدير، فإن الإيجاب من اختصاص الوحي وحده، لأن العقل إذا أوجب استقلالا ربما أدى الأمر إلى ضرب من النقض للحاكمية الإلهية(٢) ، إلا أنه بعد هذا التقرير ذهب بعض الماتريدية وهم الأوائل منهم إلى القول بأن العقل وإن لم يكن قادرا على الإيجاب استقلالا، فإنه قادر على الكشف عن الإيجاب الإلهي الذي هو إيجاب قبلي سابق في علم الله متعلق بكل أفعال الإنسان، وقد يصل هذا الإيجاب إلى الإنسان وقد لا يصله إذا لم

---

(١) انظر: في وجهة نظر المعتزلة: القاضي عبد الجبار – المغني : ٦(١) ٢٦، ٣١، ٥٢، ٥٨، ٦٤، ٧٧، والمحيط بالتكليف : ٢٣٩، ٢٥٣-٢٥٤، وانظر أيضاً: عبد الكريم عثمان – نظرية التكليف: ٤٣٨ وما بعدها .

(٢) انظر : ابن عبد الشكور والأنصاري – مسلم الثبوت وشرحه : ٢٥/١، ٢٩ .

يبلغه الوحي، وفي هذه الحالة فإن العقل في وسعه أن يبحث عن ذلك الإيجاب فيعرفه، فيكون في إلزامه بالأفعال معرفا بالإيجاب الإلهي لا موجبا استقلالاً، قال علاء الدين البخاري: (عندنا العقل معرف للوجوب والموجب هو الله تعالى، كما أن الرسول معرف للوجوب والموجب هو الله تعالى ولكن بواسطة الرسول) (١)

وبناء على هذا التحليل فإن من لم يبلغه وحي عند هؤلاء، وكذلك الصبي العاقل مكلفون بحسب عقولهم بالاعتقاد في مسائل العقائد دون الشرائع، وهم محاسبون عليها ثوابا وعقابا، وقد نسب في ذلك قول لأبي حنيفة سار عليه فيما بعد الماتردي ومعظم أتباعه، وهو: (لا عذر لأحد في الجهل بخالقه، لما يرى في خلق السماوات والأرض، ولو لم يبعث الله رسولا لوجب على الخلق معرفته بعقولهم) (٢)

وخلاصة القول : أن المنهج الأصوب فيما يتعلق بمصدر الحقيقة في تأسيس منهاج الخلافة يكون بفصل المسائل المتقدمة عن بعضها، والارتقاء في الإجابة على المسائل انتقالا من الأساس فيها إلى الذروة حتى يتشكل الرأي الأصوب، وذلك على النحو التالي :

أولاً: إن الأفعال الإنسانية سواء أفعال قلب أو أفعال الجوارح تنطوي على قيمة ذاتية، ونفي هذه القيمة يؤدي إلى حرج عقلي وديني عظيمين؛ إذ سلب الأفعال من حيث ذاتها من كل معنى للحسن والقبح يجعل فعل الإيمان بالله وتعظيمه وعبادته مساويا للإيمان بالأوثان وعبادتها والإفساد في الأرض وسفك الدماء، وهو ما يأباه العقل والدين.

---

(١) البخاري – كشف الأسرار : ٢٣٣/٤.

(٢) انظر : البخاري – الكشف عن أصول البزدوي : ٢٣٤/٤ .

ثانياً : إن تلك القيمة التي تنطوي عليها الأفعال تندرج ضمن المشيئة الإلهية الشاملة التي بنت الكون كله على حكمه، وجعلته على سنن وعلل وأسباب، فهي قيمة من تدبير إلهي، وليست من مقتضيات الحركات والأفعال استقلالا عن ذلك التدبير.

ثالثاً : الوحي هو المصدر الأول الذي يكشف عن تلك القيمة ويخبر عنها، ويقدر الأفعال على أساسها، فالله هو صاحب العلم المطلق بماضي الإنسان وحاضره ومستقبله، وهو العليم بناء على ذلك بما ينطوي عليه كل فعل من خير للإنسان ومن شر في مطلق متقلباته عبر المكان والزمان، ولذلك جاءت الشرائع السماوية تقدر الأفعال الإنسانية بما فيه خير للإنسان بحسب تغاير الزمان، انتخابًا لكل زمن يناسبه من الأفعال في منظومة منهج الخلافة الشامل.

رابعاً : خلق الله في الإنسان عقلا، وجعله مناطا للتكليف، وهو بذلك هيأه لأن يكون على قدرة للكشف عن قيم الأفعال وتقديرها، إذ لو كان خلوًا من تلك القدرة لما كان مناطًا للتكليف بالخلافة، حيث إنَّ المنصوص عليه بالوحي في منهج الخلافة لا يُغطي كل المستجدات التفصيلية من أفعال الإنسان في تقلب حياته، كما أنَّ الفطرة الإنسانية تشهد بتلك القدرة التقديرية، وذلك فيما يبدو من نزوع فطري إلى اختيار فعل ظهر حسنه على فعل آخر ظهر قبحه.

خامساً : إن هذه القدرة التقديرية للعقل قدرة نسبية محدودة لمحدودية العقل ذاته ؛ إذ هو يتحرك في معطيات الزمان والمكان المحدودة، ولذلك فإن دوره التقديري يكون دورا محدودا أيضا، وذلك على النحو التالي :

- إذا ورد الوحي يخبر بقيم الأفعال، كان دور العقل استيعابَ ذلك الخبر وتمثل التقدير الشرعي، وذلك بتبين علل الأحكام والوقوف على حكمة التشريع، وإذا

ما بدأ أحيانا تناقض بين تقدير الشرع وتقدير العقل، فمرده إما إلى عدم ثبوت الوحي لعلة في طريق روايته، أو لعدم استعمال العقل على الوجه المنهجي الصحيح[١]

- إذا لم يرد الوحي بتقدير الأفعال، فإن للعقل أن يقدرها، وذلك في نطاق الالتزام بالمنهج الصحيح في النظر، وما مشروعية الاجتهاد إلا إقرار بقدرة العقل على الكشف عن وجوه الحق في الأفعال الإنسانية.

سادساً : إن إيجاب الأفعال أي الإلزام بها فعلا وتركا، وترتيب المدح والذم على ذلك في الدنيا، والثواب والعقاب في الآخرة مصدره الله تعالى وحده، وليس للعقل أن يوجب شيئا بذلك المعنى على وجه الاستقلال: أما في حالة ورود الوحي فالأمر واضح، إذ لا موجب إلا هو بما فيه من أمر ونهي، وما يقوم به العقل في مجال الاجتهاد ليس إلا بحثا عن الإيجاب الشرعي في المواطن التي لم يرد فيها ذلك الإيجاب صريحا، فالمجتهد إن هو إلا باحث عن الحكم الإلهي بالظن وليس مخترعا لذلك الحكم، وأما في حالة عدم ورود الوحي، فإن العقل الإنساني لا تكون له أهلية الإيجابية الذي يقتضي الثواب والعقاب، لأن التقدير العقلي لما ينبغي أن يكون وما ينبغي أن لا يكون هو تقدير ظني ليست إصابة الحق فيه قطعية، فكيف يترب العقاب على ما وصول العقل إليه ظني ؟ إن ذلك قد يؤدي إلى الظلم، وهو محال في حق الله تعالى، ولذلك جاء في القرآن الكريم (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) [٢] ، ولكن العقل إذا لم يكن مؤهلا لإيجاب يناط به المدح والذم والثواب والعقاب بميزان الشرع، فإن قيمته التقديرية يمكن أن تؤهله لإيجاب ظني يكون أساس للتعامل الإنساني في غياب الوحي، وذلك : كأفضل ضمان متاح لاستقامة الحياة في هذا الغياب دون أن تبني على ذلك تبعة شرعية.

---

[١] انظر : ابن رشدة – فصل المقال : ٣١، ٣٢. .

[٢] سورة الأسراء، الآية ١٥ .

منهج القرآن الكريم في تأسيس الحضارة الإسلامية

إن منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، يتلخص في تعريفه الإنسان تعريفاً دقيقاً على كل من ذاته، وحياته، والكون الذي يعيش فيه، وهذه هي أركان أي حضارة إنسانية على مر التاريخ الإنساني الطويل، فلا يتعلق عمل الإنسان أو الجماعات الإنسانية، على اختلاف الأحوال والتقلبات، إلا بها. أياً كانت عقيدتها ومهما كانت منزلتها في الثقافة والعلم والدراية.

وبتأمل يسير، ندرك أن المقياس الوحيد لسير الحضارة الإنسانية في طريقها السليم، وإمكان الحصول على ثمارها المرجوة، إنما يتمثل في مدى المعرفة الدقيقة لهوية كل من هذه العناصر الثلاثة، والتنبه إلى الخصائص الحقيقية لكل منها. إذ بهذه المعرفة يتمكن الإنسان من الحصول على تركيبة الجهاز الحضاري الصحيح، المتآلف من مجموعة هذه العناصر الثلاثة.

إن عملية إنشاء الحضارة، إنما هي في الحقيقة صورة مكبرة جداً، لأي تركيبة كيميائية يعكف على تحضيرها أي متخصص، من مجموعة مواد وعناصر معينة، فكما أن نجاح هذا التركيب فيما يراد أن يتحول إليه، متوقف على معرفة دقيقة لطبيعة تلك المواد وخصائصها وشواردها، فكذلك نجاح السعي إلى إنشاء الحضارة، متوقف على معرفة تامة بطبيعة موادها وعناصرها الأولية، معرفة لا يشوبها أي خطأ أو وهم.

وما قامت في التاريخ الإنساني حضارات جانحة، أفسدت بدلاً من أن تصلح، وأشقت بدلا من أن تسعد، مما قد سمعت به من أحوال أمم قد خلت وبادت، إلا لأن أصحاب تلك الحضارات أخطؤوا في تصور حقيقة كل من الإنسان والكون والحياة، ثم مضوا يبنون تصرفاتهم وتعاملهم مع الكون والحياة على أساس تلك.

إن الإنسان الذي لا يعلم هويته، ولا يقف على خصائص ذاته، جدير به أن يركن إلى عرش وهمي من الجبروت والطغيان، فهو لا يكاد يحتك بالناس والمكونات التي من حوله، إلا ويتحول معهم إلى ما يشبه شجرتي المرخ والعفار(١) كلما احتك غصن منهما بالآخر، انقدح منه الشرر، ثم تولدت منه النار، ثم نشرها الريح إعصاراً ذات اليمين وذات اليسار.

وكذلك الذي عرف ذاته وخصائصها، ولكنه لم يدرك حقيقة المكونات المنثورة من حوله، وأخذ – بسائق الجهل – يؤله مظاهرها آنا، ويراها جملة تحديات طبيعية للإنسان آنا آخر – جدير به أن لا يهتدى إلى الزمام الذي يمتد من أعناق أكثر تلك المظاهر الكونية إلى حيث تطوله يد أي إنسان عاقل متدبر، ليمسك به بالطريقة المناسبة، ثم ليسخر تلك المظاهر في خدمة الإنسان ومصالحه،بل سيظل شأنه معها (وهو يسميها الطبيعة) شأن الخائف الذليل منها أو العدو المصارع لها.

وقل مثل ذلك فيمن عرف ذاته، وأدرك حقيقة الكون الذي به ؛ ولم يعلم شيئاً من مصدرها ومآلها. فإن من الجدير به أن تسلمه الحيرة في شأنها والاضطراب في تصور كنهها، إلى نوع خطير من الوحشة ذد ذاته.. ولسوف يقامر بحياته من حيث يريد أن يسعدها ويمتعها. ولربما ساقته المقامة إلى لون من ألوان الموت والانتحار.

ولكن أرأيت إلى الأمة التي أتيح لها أن تجتاز مرحلة قدسية من التأمل والفكر، عرفت خلالها هوية الإنسان وأصله ومآله، وأدركت أسرار هذا الكون ونواميسه وخصائصه وسماته، ثم علمت معني الحياة التي يتمتع بها وقيمتها، ومصدرها وعاقبتها ؛ فإن هذه الأمة هي التي تدرك جوانب التلاق والاتصال المثمر

---

(١) شجرتان تنبتان في أرض الحجاز : إذا قدحت عوداً من إحداهما بالأخرى تولدت منهما النار .

بين هذه العناصر الثلاثة في الوجود. فما أيسر أن تعمد فتؤلف بينها، ثم تحدث من مجموعها تركيباً متناسقاً يمد الإنسان في ذاته ومجتمعه بأسمى مقومات الخير والإسعاد.

ولكن من هذا الذي يستطيع أن يعرف الإنسان على هذه العناصر الثلاثة، وأن يبصره بالوجه السيم لتسخيرها والاستفادة منها، تبصيراً دقيقاً مطابقاً للحقيقة وواقع الأمر، دون أن يشوبه خطأ أو وهم ؟

إن من اليسير أن تعلم الجواب على هذا السؤال من خلال التأمل في سؤال آخر مشابه لهذا السؤال. وهو :

ما هو سبيل التعرف على جهاز جديد وصل لتوه إلينا من المعمل الذي أنتجه، ومن الذي يمكت أن يبصرنا بكيفية استعماله وطرق صيانته عل الوجه الصحيح.

مما لا ريب فيه أن الذي يملك أن يعرفنا على هذا الجهاز وطريقة استعماله، إنما هو مدير المعمل الذي انتجه أو الشركة التي استقلت بإبداعه وإنتاجه. ولذا فإن من المنطقي والضروري أن لا يصل إليك مثل هذا الجهاز، إلا مصحوباً بالكتيب الذي يحوي تعريفاً مبسطاً لأجزائه وكيفية تركيبها، ثم كيفية استعماله وطرق صيانته.

هل تجد من فرق في هذا المبدأ المتبع المعروف، بين هذا الجهاز، والأجهزة الثلاثة التي نتحدث عنها، والتي لا تستقيم نشأة الحضارة الإنسانية إلا عليها؟

إن الذي يملك أن يعرف الإنسان على هوية كل من : الإنسان، والكون والحياة، إنما هو ذاك الذي استقل بإبداعه وصنعه، ثم وضع في كل منها قابليته وإقامة على مهمته ووظيفته !.. فمن هو غير الفاطر الحكيم عز وجل، ذاك الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وخلق كل شيء فقدره تقديراً ؟

وقد شاء هذا الفاطر الحكيم، أن يحمل الإنسان مهمة عمارة الأرض كما أوضحنا ذلك من قبل، وأن يكلفه بتسخير كثير من المكونات التي من حوله، والحياة التي تخفق بين جوانحه، في سبيل إنجاز المهمة التي كلف بإنجازها.

فكيف يسعى، وكيل ينهض إلى أداء هذه المهمة، ومن أين له أن يعرف خصائص هذه العناصر الثلاثة التي لابد أن يستعين بها، وهو ذاته واحد منها ؟

ولكن الله عز وجل لم يتركه لجهالته وحيرته، ولم يدعه لأوهامه وتخيلاته، بل قرن له مع هذه العناصر التي كلف بتسخيرها، كتاباً مفصلاً غير ذي عوج، يعرفه فيه على هذه الأجهزة الخطيرة واحداً واحداً، ويهديه إلى كيفية استعمالها وإلى أفضل السبل للاستفادة منها.

فماذا بقي إذن؟

بقي أن يقبل الإنسان – وهو سيد هذه العناصر ومحركها – إلى هذا الكتاب، فيتأكد قبل كل شيء بالبراهين العلمية، أنه منزل من لدن هذا الفاطر الحكيم ذاته، ثم يعكف عليه في تأمل وتدبر.. فسيتبين في أعقاب ذلك حقيقة الإنسان ووظيفته في هذه الحياة، ومخاطر المسؤولية التي يتحملها وسيعرف وجه العلاقة بينه وبين هذه الدنيا التي تف به من كل الجهات، وسيدرك قيمة العمر الذي يتمتع به وكلاً من مبدئه ومنتهاه.

فإذا عرف الإنسان ذلك كله، فقد آن له عندئذ أن يشمر عن ساعد الجد، وأن يقبل إلى أداء المهمة المقدسة التي شرفه الله بها من دون المخلوقات كلها، متعاوناً مع إخوانه من بني جنسه، ملتزماً المنهج الذي رسمه له هذا الكتاب.

وما من ريب أنه إن فعل ذلك ملتزماً بالتوجيهات التي أمامه، مؤمناً بالمنطلقات التي أقيمت له في أول الطريق، فلسوف يجرى الله على يده خيراً لا

نهاية له، ويخلق له من وراء جهوده سعادة لا يشوبها شقاء، ولسوف يصدق فيه، مع سائر إخوانه السائرين على منوال وعد الله عز وجل :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا...) (١)

ألم يأن لنا إذن، وقد علمنا هذا كله أن نبدأ فعلاً فنعكف على دراسة منهج الحضارة الإنسانية كما رسمه لنا هذا الكتاب.. وقد سبق أن آمنا بأنه منزل من قبل رب العالمين وفاطر السماوات والأرض، خطاباً للصفوة المختارة من خلقه ؛ وأن نتعرف من خلال ذلك على هوية كل من الإنسان والكون والحياة وخصائصه وسماته، وعلى السبيل الأمثل لتحضير مركب حضاري سليم من مزيج التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة؟

لا ريب أن جواب القارئ الموضوعي المفكر هو : بلى لقد آن ذلك. ولا أظن إلا أن حوافزنا وأفكارنا مهيأة الآن للإقبال على ما يقوله لنا القرآن في هذا الصدد.

على أن هذا القرآن ما أنزل على الإنسان إلا ليزوده بهذه المعرفة، ليهديه من ورائها إلى كيفية استعماله لهذه المرفق والاستفادة منها على خير وجه ؛ ثم ليتخذ من عمارة هذه الأرض وبنيانها الحضاري، صراطاً معبداً ذلولاً إلى التحقق بمعاني العبودية لله تعالي سلوكاً واختياراً. كما قد فطر على هذه العبودية قهراً واضطراراً.

من هو الإنسان في القرآن؟

---

(١) سورة النور، الآية ٥٥.

الإنسان هو أهم العناصر الثلاثة التي تنبثق الحضارة الإنسانية م تألفها وتفاعل ما بينها. ذلك لن الإنسان هو العنصر المؤثر الفعال، أما الآخران، فمنفعلان ومتأثران ؛ ولأن الإنسان هو محور العمارة الكونية في هذه الحياة، وهو الهدف من ورائها. أما كل ما عداه، فأسباب ميسرة نثرت له هنا وهناك، ليراها أمامه فيستهين بها ويستخدمها في بلوغ آماله وتحقيق رسالته.

من أجل هذا يحفل القرآن بالإنسان، كما لا يحفل بغيره. فهو يبدأ قبل كل شيء بتعريف الإنسان على ذاته، ترى ذلك واضحاً فيه سواء أسبقية الترتيب أو النزول.

ألا ترى إلى أول آية قرآنية من حيث النزول، كيف بدأت فاتجهت إلى الإنسان تعرفه على ذاته، وتشرح له أصله ومصدره، وهي قوله تعالي: " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ"(١) .

ثم انظر إلى أوائل الآيات القرآنية من حيث الترتيب الكتابي، كيف بدأت هي الأخرى بالحديث عن الإنسان، فقسمته إلى مؤمن وجاحد ومنافق، ثم خاطبت هؤلاء الأقسام جميعاً فعرفتهم على هواياتهم، وأنبأتهم بقصة نشأتهم فوق هذه الأرض، وكيفية خلق الله لأبيهم آدم عليه الصلاة والسلام، والمنزلة الكريمة التي أنزله الله إياها من بين سائر مخلوقاته، والتكريم الذي من عليه به حتى على ملائكته.

وهكذا بدأ القرآن، قبل كل شيء، وحسب أسبقية كل من الترتيب الكتابي والنزول الزمني، بتعريف الإنسان على ذاته وتبصيره بأصله وخصائصه، ومدى أهميته وخطورته في هذا الكون الذي يعيش فيه.. وذلك لأنه أهم العناصر الحضارية وأخطرها، ولأنه المحور الذي تدور عليه حركة معظم الموجودات المتماوجه من حوله، ولأنه هو الذي سيكلف بتسييرها وتسخيرها نحو هدف جد عظيم وخطير.

---

(١) سورة العلق، الآيتان ١ و ٢.

إذن.. فمن هو الإنسان في القرآن، وما هي مزاياه وسماته، وما هي مسؤولياته الكبرى في الحياة؟

ولدى التأمل، نجد أن القرآن يبصر الإنسان بحقيقته وبمختلف مزاياه، وبمهمته في الدنيا، من خلال تبصيره بحقيقتين اثنتين، داخلتين في قوامه وتركيبه الإنساني، وبينهما – في الظاهر – ما يشبه التناقض أو التشاكس.

الحقيقة الأولى : أنه مخلوق ضعيف، أصله الأول من تراب، وسلالته من ماء مهين، والشأن فيه، إن طالت به الحياة، أن يعود إلى أرذل العمر، فلا يعلم – بعد علم – شيئاً. ويغلب عليه، مع ذلك، أن يشمخ بأنفه، ويستكبر على الرغم من ذله، وأن يخاصم ويعاند، ويجادل ويكابر.

وإليك طائفة من الآيات التي تبصر الإنسان بمظاهر هذه الحقيقة في ذاته :

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) (١)

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) (٢)

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) (٣)

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) (٤)

---

(١) سورة الطارق، الآيات ٥ – ٧ .

(٢) سورة عبس، الآيات ١٧-٢٠ .

(٣) سورة الإنسان، الآية ٢ .

(٤) سورة يس، الآية ٧٧. .

(فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) (١)

أما الحقيقة الثانية: التي تشكل الجزء الآخر من الهوية الإنسانية في القرآن، فهي أن الإنسان هو ذلك المخلوق المكرم على سائر المخلوقات الأخرى، وأنه ذاك الذي استأهل أن يكلف الله الملائكة بالسجود له، متمثلا في شخص أبيه آدم عليه الصلاة والسلام، وأنه الذي شرفه الله بالخلافة على هذه الأرض، عندما شاء أن يجعله – بالمهمة التي حمله إياها – مظهرا لعدالة الله تعالى وحكمه، وأنه الحيوان الوحيد الذي جهزه الله بالعقل والتفكير والقدرة على إدارة الأمور.

وإليك طائفة من الآيات التي تبصر الإنسان بمظاهر هذه الحقيقة الثانية في كيانه :

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (٢)

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (٣)

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (٤)

---

(١) سورة الحج، الآية ٥. .
(٢) سورة الإسراء، الآية ٧٠.
(٣) سورة البقرة، الآية ٣٠.
(٤) سورة البقرة، الآيتان ٣١- ٣٢.

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) (١)

(عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (٢)

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (٣)

ولا بد لنا أن نتساءل الآن : فكيف تآلفت هاتان الحقيقتان ضمن هوية واحدة للإنسان ؟.. وما وجه تركيز القرآن على كل منهما ؟.. وما هو أثر تنبيه الإنسان إلى اتصافه بكلتا هاتين الحقيتين ؟

أما كيفية تآلفهما ضمن الهوية الإنسانية الواحدة، فوجه ذلك أن الإنسان، مهما بلغت مرتبته من السمو، ومهما اتصف به من المزايا والصفات النادرة، فليس شيء من ذلك نابعا من ذاته، ولا هو اكتسبه أو شيئا منه بجهده واستقلاله طاقته؛ وإنما جاءه كل ذلك فيضاً من الله عز وجل، وأمانة استودعت عنده إلى أجل، أما تكوينه الذاتي فمن تراب تافه، ثم من ماء مهين، ثم هو مخلوق عاجز، في قبضة الله وحكمه، قد أطبقت عليه آصار العبودية لمن بيده خلقه وتدبيره؛ إن لم يقر بذلك لسانه طوعا، آمن به كيانه وواقع حاله قسرا.

غير أن الله عز وجل، لما شاء أن يختاره لعمارة هذه الأرض، وكلفه بتأليف أسرة إنسانية تقف تحت سلطان العبودية لله عز وجل، وتقيم حياتها على منهج الشريعة الربانية، لتكون بذلك مظهر لعدالة الله تعالى في الأرض – جهزه بملكات نادرة، ميزه بصفات سامية لم توجد في غيره، فأورثه العقل والتفكير، وسخر له

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣٤.
(٢) سورة العلق، الآية ٥.
(٣) سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

كثيرا من الحيوانات والمخلوقات، وغرس في كيانه شعور حب الذات والإحساس بالأنانية، وحب التملك واجتياز الأشياء، وأمده بالطاقة والقوة.

هذه الصفات ليست في حقيقتها إلا ظلالا وفيوضات من صفات الربوبية، أنعم الله بها على هذا المخلوق ليستعين بها في أداء رسالته، ولتيسر له السبيل إلى تحقيق خلافته على الأرض؛ فينشئ فوقها الحضارة الإنسانية المثلى التي حمله القرآن مسؤولية إنشائها في قوله: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (١)

وإذن، فالإنسان، في كينونته الذاتية عبد مملوك لله عز وجل، خلق من ضعف وينتهي إلى ضعف، ولكنه نظرا للرسالة التي حملها - يتمتع بصفات نادرة جهزه الله بها، فاستأهل بموجبها الرفعة والتكريم، إن هو استعمل تلك الصفات على وجهها.

وهذه الصفات التي متع الله بها الإنسان وكانت مناط رفعته وتكريمه هي المعنى بالأمانة في قوله عز وجل: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (٢)

وأما وجه تركيز القرآن على كل من هاتين الحقيقتين معا، والاستمرار في تذكير الإنسان بضآلته وتفاهة أصله، إلى جانب تذكيره بالمكانة التي يتبوؤها، وبأهمية وجوده وخطورة الصفات النادرة التي ركبت فيه، والوظيفة التي كلف بالنهوض بها: فلأن رجب الحضارة الإنسانية في القرآن، هو ذاك الذي ربي في ظلال هاتين الحقيقتين معا، وعاش يستلهم غذاءه التربوي من معرفة أصله وحقيقته وضآلة شأنه وذل نهايته، ثم من معرفة ما قد أنعم عليه الخالق عز وجل،

---

(١) سورة هود، الآية ٦١. .

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٧٢ .

مع ذلك، من صفات وملكات نادرة، وما قدر أكرمه به من سمو في الرتبة والمكانة، وما شرفه به من مسئولية إنشاء الحضارة الإنسانية وعمارة الأرض.

فمن عاش لا يتبصر من ذاته إلا مظاهر ضعفها ودلائل تفاهتها وهوانها، جدير به أن يركن إلى ضعف يجعله ضحية طغيان الجبابرة والمتكبرين، ويبعده عن إنجاز أي عمل أو خدمة إنسانية مما قد حمله الله تعالى مسئولية النهوض به، ويقعده عن أي مساهمة في سبيل عمارة الأرض وإنشاء الحضارة الإنسانية المطلوبة.

ومن عاش وهو لا يعرف من ذاته إلا أنه الإنسان المكرم الذي يملك من المزايا والصفات ما يخوله أن يبسط لنفسه حكما وسلطانا على كل ما حوله ومن دونه، جدير به أن يسكر بنشوة تلك الصفات التي سبق أن قلنا؛ إنها ليست في أصلها سوى فيوضات إلهية وظلال لصفات الربوبية، ثم أن يجعل من نفسه حاكما من دون الله عز وجل، يبسط قهر ربوبيته الزائفة على سائر المستضعفين!.

وبالجملة، فإن الشأن فيمن لم يتنبه –في يقظة عقلية وشعور وجداني صحيح– إلى مجموع هويته وذاتيته الإنسانية الجامعة بين هذين الشطرين، كما أوضحنا: الشأن فيه أن يتطرق إما إلى سبيل التكبر والطغيان على الآخرين، إن سنحت له الظروف وأمكنته الفرصة، وإما إلى سبيل من المهانة والخنوع، إن خانته الظروف وخيبته الفرص والآمال، ومن هذين السبيلين يتحقق ما يسميه البيان القرآني: الإفساد في الأرض.

بل تلك هي آفة الحضارة الجانحة التي تقرأ عنها في بطون التاريخ، أو نجد بقاياها وأطلالها منثورة على جنبات الأرض، وتلك هي قصة الفساد أو الإفساد في الأرض، ذلك الإفساد الذي يظل القرآن يكرر الحديث عنه، ويكثر التحذير منه،

ويلفت نظر الإنسان إلى مغبات التورط في أسبابه، وينبهه إلى الرزايا والمصائب التي لا بد أن يتحملها على أعقابه.

فما فسدت هذه الأرض يوما ما بعادية من عوادي الطبيعة، ولا بسوء ألم بها من هياج الحيوانات والوحوش؛ وإنما استشرى فيها الفساد وألم بها البلاء، يوم تاه بنو الإنسان عن هويتهم وواقع أحوالهم وحقيقة خصائصهم البشرية، فتأله الأقوياء، وذلك الضعفاء؛ وخرج بذلك كل فريق عن حدود إنسانيته: ذاك نحو التعالي والتجبر في الأرض، وهذا نحو الخنوع وتقبل الهوان، فمزقت بذلك مما بينهم آصرة التعاون، وهاجت فيهم عوامل البغضاء، ثم انتشر فيهم وباء التهارج والقتل ، فتمت بذلك قصة الفساد في الأرض، وهي قصة قديمة وحديثة، تكرر بتكرر عواملها وأسبابها؛ والمهم أن تعلم أن الأسباب هي الأسباب ذاتها، وأحداث القصة هي الأحداث ذاتها، مهما تطورت الدنيا، واختلفت المدنيات والثقافات؛ وأن تعلم أن سبيل الوقاية منها هي السبيل ذاته، ذاك الذي رسمه القرآن، وأفاد منه كل من تفهمه ووعاه ثم طبقه كما وعاه.

هذا أخر ما توصلت إليه في هذا البحث فإن يكن صواباً فمن الله عز وجل، وإن يكن خطأ فمن نفسي، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

خاتمة

وفي ختام هذا البحث أحب أن ألفت النظر إلى رؤوس مسائل البحث الأساسية، وهي متكاملة في إطارها الكلي، إذ ذلك يساعد القارئ في استجماع فكرة البحث.

إن أولى هذه المسائل أن في خلق الإنسان حكمة وغاية، وهي عبادة الله وعمارة الكون، وضياء هذه الحضارة الربانية، مع ملاحظة أن الحكمة بالنسبة لله سبحانه وتعالى إنما تكون بمعنى الغاية لا الباعث أو المؤثر؛ فإن الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء، كما دل على ذلك كل من العقل والنقل.

وبعد هذه المسألة وجد الباحث من الضروري منهجياً أن يتناول خلق الإنسان من عدم، والرد على الماديين وأصحاب نظرية النشوء والارتقاء، ثم بيان مراحل خلق الإنسان.

إما المسألة الثانية فحديثة عن خلافة الإنسان في الأرض، وطبيعة هذه الخلافة، ومنهاج الخلافة، وذلك كله من خلال القرآن الكريم، ثم منهاج الخلافة بين الوحي والعقل، وحقيقة هذا الوحي وخصائصه، وأن الوحي كله قرآناً أو سنة إلهي المصدر لا مدخل فيه لذات النبي بوجه من الوجوه سوى التحمل والتبليغ للناس، غير أن القرآن إلهي المصدر لفظاً ومعنى، والحديث إلهي المصدر في معناه دون لفظه.

والوحي حقائقه مطلقة، وليس للإنسان أن يعقب عليها، وإنما ينحصر دوره في الاستجلاء والفهم فحسب، وإنما كانت مطلقة لأنها نابعة من علم إلهي مطلق بما هو كائن من عالم الغيب، والوحي ممحض للحكم في أجناس الأفعال لا في أفرادها.

وثالث المسائل: حقيقة العقل وخصائصه، ومنهاج وخلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ثم تأتي مسألة وظيفة الإنسان في هذا الكون، وأنه محور الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم.

وأخيراً، هذا هو جهد المقل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادروالمراجع

* **القرآن الكريم.**

١- آدم عليه السلام/ للبهي الخولي.

٢- أصول الدين/ للبغدادي.

٣- الأحكام/ للآمدي.

٤- الأساس في التفسير/ سعيد حوى. الناشر: دار السلام، القاهرة: الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.

٥- الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة/ لأبي الأعلى المودودي.

٦- الإسلام يقود الحياة/ باقر الصدر.

٧- الإعجاز الطبي في القرآن/ سيد الجميلي.

٨- الاقتصاد في الاعتقاد/ للغزالي.

٩- الإنسان ذلك المجهول الليبس كاريل.

١٠- البحر المحيط في أصول الفقه/ للزركشي.

١١- التعليل في القرآن/ د. محمد سالم أبو عاصي/ الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٢- التفسير القرآني للقرآن/ عبد الكريم الخطيب، الناشر دار الفكر العربي، القاهرة.

١٣- الجامع لأحكام القرآن/ لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.

١٤- إلزام القرآن للماديين والملحدين/ للدكتور سيد أحمد المسير.

١٥- العلم بين القرآن والتوراة والإنجيل/ موريس بوكاي.

١٦- الفتاوى/ لابن تيمية.

١٧- الفكر الإسلامي بين العقل والوحي/ عبد العال سالم.

١٨- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة/ للشوكاني.

١٩- القاموس المحيط/ للفيروز بادي.

٢٠- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٢١- الكشف عن أصول اليزدوي/ البخاري.

٢٢- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ لابن عطية. تحقيق وتعليق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري - السيد عبد العال السيد إبراهيم، الطبقة الأولى: يناير ١٩٨٧م.

٢٣- المحيط بالتكليف/ القاضي عبد الجبار.

٢٤- المسايرة/ لابن الهمام.

٢٥- المستصفي / للغزالي.

٢٦- المعتمد في أصول الفقه/ لأبي الحسن البصري.

٢٧- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار الفكر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م.

٢٨- المعجم الوسيط.

٢٩- المغني/ للقاضي عبد الجبار.

٣٠- الموافقات/ للشاطبي.

٣١- المواقف وشرحه/ عضد الدين الإيجي والسيد الشريف الجرجاني.

٣٢- الميزان في تفسير القرآن/ للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي/ الناشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان.

٣٣- تجديد الفكر الديني/ محمد إقبال.

٣٤- تفسير ابن عباس بهامش الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٣٥- تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٣٦- تفسير البغوي "معالم التنزيل" للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي. حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر- عثمان جمعه ضميرية، سليمان مسلم الحرشي، الناشر: دار طيبة، المملكة العربية السعودية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

٣٧- تفسير التحرير والتنوير/ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الناشر: الدار التونسية، تونس ١٩٨٤م.

٣٨- تفسير الثعالبي المرسوم بجواهر الحسان في تفسير القرآن/ الناشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان.

٣٩- تفسير العلامة الخنجواني.

٤٠- تفسير روح البيان/ تأليف الشيخ إسماعيل حقي البروسوي/ الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، ١٩٨٥م.

٤١- تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب/ للإمام محمد الرازي/ الناشر: دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.

٤٢- تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل/ تأليف العلامة محمد جمال الدين القاسمي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

٤٣- تفسير القرآن العظيم/ للإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٩م.

٤٤- جامع الأحاديث / للسيوطي.

٤٥- جامع البيان في تفسير القرآن/ تأليف: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، الناشر: دار الحديث، القاهرة، ١٩٨٧م.
٤٦- دلائل التوحيد/ للقاسمي.
٤٧- رسالة التوحيد/ لمحمد عبده.
٤٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ للعلامة السيد محمود الألوسي البغدادي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
٤٩- زاد المسير في علم التفسير/ لابن الجوزي، الناشر: المكتب الإسلامي: بيروت، ودمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤م.
٥٠- صفوة التفسير/ تأليف محمد علي الصابوني، الناشر: مطابع الدوحة الحديثة، الدوحة، قطر، ١٩٨١م.
٥١- غاية المرام/ للآمدي.
٥٢- فتح البيان في مقاصد القرآن/ للأمام أبي الطيب صديق بن حسن بن علي الحسين القنوجي البخاري/ إدارة إحياء التراث الإسلامي/ قطر، ١٩٨٩م.
٥٣- فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير/ تأليف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت ، الطبعة الثالثة، ١٩٩٩م.
٥٤- فصل المقال ، لابن رشد.
٥٥- فلسفتنا/ باقر الصدر.
٥٦- كبرى اليقينيات الكونية/ الدكتور محمد سعيد البوطي.
٥٧- كشف الأسرار/ للبخاري.
٥٨- كنز العمال/ للمتقي الهندي/ الناشر: دار اللواء: الرياض/ مؤسسة الرسالة: بيروت/١٩٧٩م.
٥٩- لسان العرب/ لابن منظور.

٦٠- مباحث في علوم القرآن/ مناع القطان.

٦١- مختار الصحاح.

٦٢- مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني، الطبعة الرابعة، ١٤٠١هـ، بيروت، لبنان.

٦٣- مختصر المقاصد الحسنة/ للسخاوي.

٦٤- مختصر تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل/ للإمام علاء الدين علي بن محمد البغدادي، اختصره وهذبه: الشيخ عبد الغني الدقر، الناشر: اليمامة للطباعة والنشر، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

٦٥- مسلم الثبوت وشرحه، ابن عبد الشكور وعبد العلي الأنصاري.

٦٦- معالم أصول الدين/ للرازي.

٦٧- منابع القدرة في الدولة الإسلامية/ باقر الصدر.

٦٨- مواقف ومقاصد في الفكر الإسلامي المقارن/ محمد ياسين عربي.

٦٩- نظرية التكليف/ عبد الكريم عثمان.

٧٠- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/ للإمام أبن الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

٧١- نهاية الأقدام، للشهرستاني.